

الحرب والعلاقات الدولية في الإسلام

الحرب والسلام - الإسلام والحرب - الإسلام وقانون
الحرب - دار الحرب ودار السلام - العهد والمواثيق

obeikandi.com

الحرب والسلام

الحرب أقدم ظاهرة في الوجود الإنساني وهي الصورة الجماعية للقتال الفردي بين الإنسان والإنسان أو بين أفراد المخلوقات الأخرى من الحيوان والطيور في المعركة الخالدة لتنازع البقاء، ولكنها لا تأخذ صورتها الجماعية إلا بين الإنسان وعند بعض المخلوقات العليا التي تعيش في جماعات كالقروود؛ ولذلك فإن الحرب ظاهرة اجتماعية ترتبط بإقبال الإنسان على حياة الجماعة، وتنشأ بنشأة الجماعات الإنسانية في صورتها الأولى، والقتال في صورته الفردية قديم قدم الوجود الإنساني، وحين نتكلم عن غريزة المقاتلة نتكلم عنها في الإنسان الفرد، فالحرب وهي الصورة الجماعية للقتال الفردي ليست إلا تأليفاً لغريزة المقاتلة في الفرد لتأخذ صورة جماعية يستعين فيها الفرد بمن يلوذ به لمواجهة فرد آخر ومن يلوذ به أيضاً، وهي في هذا تأخذ اتجاهاً عقلياً غير الاتجاه الغريزي الذي يحكم جماعات القردة في مواجهتها لعدو طارئ لا يستطيع الواحد منها أن يواجهه بنفسه فتدفعها الغريزة إلى التجمع لحماية نفسها من الضواري والكواسر التي تفوقها قوة وبأساً.

وقد عرف الإنسان القتل في أول مراحل وجوده الإنساني كما تصوّره الكتب السماوية التي تقصّ من نبي آدم هابيل وقايل إذ قتل قايل هابيل نعمة منه لفوزه بزواج توأمة الجميلة دونه فيها يرى بعض المفسرين للآية الكريمة في قوله تعالى:

(واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين . إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين^(١)).

ومهما يكن من اختلاف المفسرين حول ابني آدم إذ يراها البعض أنها ليسا بابني آدم من صلبه وإنما هما رجلان من بني إسرائيل وكلنا أولاد آدم، فإنها دلالة على أن طبيعة القتل والقتال من طبائع النفس البشرية الأولى وإن دافعها على الدوام هو الأثرة والتنافس وهي الطبيعة التي تدفع إلى الحرب حتى وقتنا هذا وإن ردّها برتراند رسل «إلى أسباب في النفس الإنسانية تفوق الأغراض المادية التي يسعى إليها المحاربون» فإنها - كما يقول -

« لا تتور بسبب ما يصبو إليه مثيروها من مطامع ، بقدر ما تثيرها نزعتنا إلى الحرب نفسها ، ففي أغلب الأحيان يطمع الإنسان في شيء لا طمعاً في الشيء ذاته ، ولكن بسبب ما في طبيعته من الميل إلى الأعمال التي تؤدي إلى ذلك المطمع ... إذ أن الحرب نفسها تشبع شهوة من الشهوات المركبة في طبيعتنا ، فلو أن الناس يصدرون في أعمالهم حقاً عن رغبة في السعي إلى ما يجلب الخير ، لكانت الدلائل المنطقية الخالصة كفيلاً بوضع حد للحروب منذ زمن بعيد فنحن أعجز ما نكون عن كبت شهوتنا للحرب لأنها تصدر عن نزعة أكثر مما تصدر عن التقدير الصحيح للمنافع التي نطمع فيها من وراء الحرب » .

وقد نرى أن الحرب وإن كانت ظاهرة اجتماعية سابقة على نزعة التجمع الإنساني وما يعقبه من تماسك اجتماعي فإن نزعة الإنسان الغريزية للقتال - وإن كنا نراها جماع ما ركب في طبيعته من الخوف والطمع إذ يدفعه الخوف إلى حماية نفسه بقتل من يخشاه كما يدفعه الطمع إلى قتل من يعوقه عن تحقيق مطمعه - هي التي حملته على التجمع ومن ثم إلى التماسك الاجتماعي ، فالتجمع فضلاً عما يضيفه عليه من شعور بالأمن والحماية فيؤمنه من خوف ويشعره بالقوة فإنه بشعوره بالقوة على غيره ينزع إلى العدوان . فإذا غلب عدوة أحس بالزهو ولذ له الانتصار . وعلى مرّ الأحقاب تكونت نزعته للحرب مشوبة بالزهو ولذة الانتصار ثم أخذ العقل في خلق التبريرات المنطقية التي تجعلها حقيقة مقبولة تحفز المحارب على قتل غيره وقتل غيره له ، وهي تبريرات تختلف من عصر إلى عصر وفقاً لطبيعة العصر ومنطقه ، وإن ظل يحكمها الخوف والطمع ، الخوف من الإبادة والرق والطمع في الإبادة والاسترقاق . ففي المجتمعات البدائية الأولى حين نزع الإنسان إلى التجمع كان يبتغي حماية نفسه والدفاع عن أسرته ، فالأسرة وهي أقدم خلية للتجمع الإنساني كانت تجمعاً طبيعياً بسبب طول فترة الطفولة الإنسانية فالأم مشغولة بتربية الأطفال ولعلها هي التي حملت الأب على الالتصاق بالأسرة فمقابل أن تسلم له نفسها كان عليه أن يقوم بأودها ، فإذا عرفنا أن الأم تستطيع أن تنجب طفلاً كل ثمانية عشر شهراً فقد كان عليها أن تنصرف تماماً إلى تربية الأطفال وأن ينصرف الأب إلى الصيد وجلب الطعام وهو ما يمكن أن ندعوه بتقسيم العمل وهو التقسيم الذي نراه في فصائل الطير وفي بعض أنواع الحيوان كما نراه في الإنسان وهو تقسيم تحتمه غريزة البقاء والاستمرار .

وينمو الأسرة تكونت الجماعة الإنسانية الأولى وطالما كان التزاوج قاصراً عليها فإن نوحها كان منبعثاً من الداخل ، وحملها الخوف وتأمين مصادر الطعام على التماسك فيما بينها ، ولعلها في هذا المجتمع البدائي الأول لم تكن تحفل بغير الكواسر والغارات التي تشنها

الضواري عليها بين حين وآخر، ولعل الكواسر من الحيوان الذى يخشاه الإنسان على حياته، كانت هى الأخرى لا تخشى غير الإنسان لما يتمتع به من ذكاء يستطيع أن يستخدمه فى صدها والقضاء عليها بل وفى مظاردتها للانتفاع بجلودها ولحمها وعظامها ولعل أول مظاهر هذا الذكاء أنه استطاع أن يقدر قوة الجماعة على قوة الفرد فى هذا الاحتكاك القائم بينه وبين الضواري وغالباً ما كان هذا الاحتكاك ينتهى بتفوق الإنسان فخشيته الحيوان وخافه وفر من طريقه ما لم يعترضه الإنسان فيلجأ إلى الدفاع عن نفسه أو يلجئه الجوع إلى الغارة على التجمعات البشرية.

وطالما كانت الجماعة الإنسانية تجد كفايتها من الطعام فى الرقعة التى تقوم عليها طالما استتب السلام بينها وبين الجماعات الأخرى، فإذا تكاثرت ونمت ولم تعد تلك الرقعة تكفيها حاجتها من الطعام كان ذلك مدعاة لوقوع الصدام بينها وبين الجماعات المجاورة، ومنذ ذلك الحين أخذ القتال صورته الجماعية فيها نعرفه بالحرب وأدى ذلك إلى التماسك الاجتماعى فيما بينها كما أدى فى الوقت نفسه إلى الحرب، فالجرب والتماسك الاجتماعى ظاهرتان متلازمتان منذ بدأ الوجود الإنسانى تجمعاته البشرية. « فلم يكن أبأونا الأول - كما يقول برتراند رسل - مدفوعين بتفكير واع وسياسة مرسومة وإنما كانوا فيما يصدر عنهم من أعمال مدفوعين بغريزة آلية تتجلى فى مظهرين: شعور الألفة الذى يربط بينهم وبين جماعاتهم، وشعور العداء تجاه الجماعات الأخرى » ولما كانت الجماعة مازالت جماعة أسرية وإن كثر عددها فقد كان من اليسير أن تنمو بينها روابط الألفة والمودة، وتدفعها المصلحة المشتركة - وهى مصلحة تتبدى حينذاك فى غريزة المحافظة على الذات - إلى التماسك الاجتماعى ومن ثم إلى شعور بالتوجس والحذر تجاه الجماعات الأخرى هو الذى يحملها على معاداتها.

وما من شك فى أن التطور الاجتماعى من الأسرة إلى العشيرة فالقبيلة ثم إلى الأمة أخيراً إنما هو وليد نزعة فطرية ونزعة عقلية، نزعة فطرية يحدها شعور غامض بالرغبة فى التجمع والتماسك الاجتماعى ابتغاء الأمن وهو شعور أقوى ما يدعمه الخوف، ونزعة عقلية يحدها التفكير فى مصلحة الجماعة وتدير ما يحقق أمنها وحمايتها.

وتطورت تبعاً لذلك نزعة الحرب فبعد أن كانت حرب إبادة تعمل فيها الجماعة على إبادة الجماعة المعادية لها للاستيلاء على مواردها من الطعام رأت الجماعة الغالبة أن استرقاق الجماعة المغلوبة أنفع لها من إبادتها إذ تستغل قدرتها على العمل فى أرضها المغتصبة للانتفاع بمواردها من ناحية وتجنب الجهد الذى كان عليها أن تبذله فى استغلالها من ناحية

أخرى، وأصبحت الحرب بعد ذلك حرب غزو واستعمار، يطبعها الخوف وهو طابعها القديم كما يطبعها الطمع أيضاً، وظلّ الخوف شعورياً أو لا شعورياً هو الذى يحمل الجماعة معها كان حجمها إلى التماسك الاجتماعى فى العشيرة والقبيلة كما هو فى الأمة حتى وقتنا هذا معها كانت طبيعة الولاء للسلطة القائمة سواء كان ولاء حقيقياً أم ولاء زائفاً كولاء الرقيق لسادتهم.

وما زالت غريزة الخوف والطمع تحكم طبائع الشعوب كما كانت تحكمها فى الجماعات البدائية الأولى فتحملها على التماسك الاجتماعى والولاء للأمة كما تحملها على الحرب والعدوان، حتى لنستطيع أن نقسم البشر إلى قسمين: أعداء وأصدقاء - ولا نختلف فى هذا عما يراه برتراند رسل - فى تصنيف أفراد الإنسان قاطبةً إلى أصدقاء وأعداء. «أصدقاء تجمعهم رابطة أخلاقية هى التعاون، وأعداء يفرق بينهم التنافس - فالصراع أزلّ دائم بينهم وإن انقلب الأعداء - على المستوى الفردى - أصدقاء أمام تهديد خارجى يعصف بهم جميعاً»، وتلك حقيقة لا شك فيها، ولكنها حقيقة - كما نرى - لا تدرج على الجماعات بنفس التأثير الذى تدرج به على الأفراد، فالخير والشرّ حقيقتان أزليتان، إلا أن طبائع الجماعات كثيراً ما تختلف اختلافاً بينا عن طبائع الأفراد. فالغرائز التى تحكم الأفراد كثيراً ما تتوارى أمام غرائز الجماعة. والقتال غريزة فردية والحرب ظاهرة جماعية تقوّها غريزة المقاتلة فى الفرد، ولكنها لا تعلق إلى قوّة الغريزة الفردية، فإذا كان دافعها الخوف وهو شعور غريزى فإن الخوف يدفع إلى التماسك الاجتماعى وهو شعور تحكمه الغريزة كما يحكمه العقل.

وحين ينمو التماسك الاجتماعى فيتحوّل ولاءٌ للجماعة فإنه يدين بولائه للمنفعة التى تعود عليه منه وهى مدلول مادى يعنى عائدات حقيقياً، والخوف فى الجماعات الأولى كما فى الجماعات الأخيرة وإن كان مصدره الغريزة إلا أن أسبابه وحوافزه الاجتماعية مادية صرفة، فليس خوفاً من المجهول وإنما هو خوف من شىء يعرفه ويحذره ويخشى خطره على مصالحه ومنافعه.

وليس العداء بين الشعوب كالعداء بين الأفراد، فكثيراً ما يقوم العداء بين الأفراد على الكراهية المجردة، كراهية لا تحكمها المنفعة وقد تحكمها عوامل نفسية أخرى كالغيرة أو الحسد، ولكنها بين الشعوب عداوة يحكمها التنافس المادى الصرف فقد يتقابل الأفراد من شعبين معادين على صفاء ومودة، ولكنها لا تتم بين الشعوب إلا إذا حلّت المصلحة محل التنافس. وحين ينتفى التنافس يقوم من التعاون بين الشعوب ما لا يحو العداء بين

الإنسان والإنسان وسيبقى الناس أعداء أو أصدقاء في ظلّ الوحدة العالمية التي يراها برتراند رسل عسيرة التحقيق ما دام البشر أعداء وأصدقاء. « إذ لو كانت هناك دولة عالمية واحدة وطيدة الأركان - كما يقول - فليس من عدو خارجي نخشاه، وهي على هذا في مأمن من الخوف. وما دام الخوف هو الحافز على وجود التماسك بين البشر، فسيبقى الخطر من انهيارها ماثلاً ».

ولكن الخوف - كما نرى - وإن كان حافزاً غريزياً فإن ما ينجم عنه ليس من قبيل الفرائز وإنما هو ردّ فعل لها فيقدر ما يحفزنا الخوف على القتل بقدر ما يواجه النزوع إلى القتل ردّ فعل آخر، هو رد الفعل الناجم عن غريزة حب البقاء أو المحافظة على الحياة؛ إذ أننا لا نخاف إلا ما يهدّد حياتنا، فإذا انتفى التهديد انتفى معه الخوف، فقد ينزع الإنسان إلى قتل عدوه أو يتمناه إلا أن يقينه من العقاب الذي توقعه به الجماعة، وهو عقاب يتكافأ مع الجريمة يحول بينه وبين الإقدام عليها. وحين كان المجتمع الأمريكي في طوره الأوّل وخلال فترة الزحف نحو الغرب كانت الجماعة هي التي تضع عقوبة الإعدام على القاتل لغياب السلطة أو لبعدها عن مركز الجريمة.

ويقدر ما يتكافأ العقاب والجريمة في الحدّ من ارتكاب جريمة القتل أو الإقدام عليها تتكافأ أيضاً عواطف الكراهية والمحبة، والعداوة والصداقة، فتوهن من بعضها البعض ليحل العقل محل العاطفة والمنفعة محل النزوة.

وقد اقترنت الحروب القديمة بهالات من المجد والبطولة أضفاها المؤرخون على المحاربين والفرسان ففدت ميداناً عزيزاً للفخر والمباهاة، ولكن الحرب في صورتها القديمة وإن لم تتجرد من الوحشية والإبادة التي يوقعها الغالبون بالمغلوبين، غير الحرب الحديثة وهي حرب إبادة منذ بدايتها، فحيث يتجالد الفرسان ويتبارز الأقران وتتنازع السيوف والحرايب قديماً يتميز الفارس في ميدان القتال كما يتميز المصارع في حلبة المصارعة، وحيث ينز الرصاص وتهدر المدافع وتتساقط القنابل في الحرب الحديثة فتحصد من تلقاه ولا يفرّ منها نابه أو مغمود يتساوى فيها الشجاع والجبان ولا يتميز فيها مقاتل على آخر، نجدها قد فقدت طابع البطولة القديم ولم تعد صورة جذابة للناس أو مشيرة للفخر والمباهاة، هذا فضلاً عن أن فكرة الحرب في العالم الحديث قد غدت فكرة مجموجة، لا يقبلها منطق العصر، لا لأنها ظاهرة غير أخلاقية فحسب، ولكن الإدراك الواعي للخسارة التي تقع بالطرفين على السواء قد جعل العائد منها على المنتصر لا يتكافأ مع خسارته فيها، فبينما كانت الخسارة في الحروب القديمة تلم بالمقاتلين في الميدان ولا تنال المدنيين في الداخل فإن الحرب الحديثة تعصف بالمدنيين العزل كما تعصف بالمقاتلين في الميدان.

فإذا كان الخوف من الحرب هو الذى أدى إلى التماسك الاجتماعى ، فإنه هو الذى أدى بالتالى إلى قيام العلاقات الدولية ، وهى ظاهرة اجتماعية لها طابع أخلاقى يمكن أن نسميه « تهذيب الحرب » أو « ترويض الحرب » مهما أضفينا عليها من صفة السياسة . فالتماسك الاجتماعى وإن أدى إلى الشعور بالأمن حيث تشعر الجماعة بقدرتها فى تجمعها على صدّ العدوان ، فإنه يؤدى بالتالى إلى العدوان حين تشعر الجماعة بقوّتها على غيرها فتتسّن عليها الحرب لاسترقاقها ونهب مواردها ، فإذا تكافأت جماعتان فى قوتها وخشى كل منها الآخر فإنها يعزفان عن الحرب ويستبدلان بها تنظيم العلاقة بينهما . وتقوم العلاقة فى البداية على تجنب الاحتكاك الذى يؤدى إلى الحرب فإذا رأى أن حاجة كل منها إلى المنفعة من الأخرى . قامت العلاقة على أساس التعاون ، وهو ما نطلق عليه التعاون الدولى حين تشعبت العلاقات ونمت الجماعات الإنسانية لتأخذ شكل الدولة ، وتعددت الدول بتعدد الجماعات التى انبثقت منها .

فإذا تعذر التعاون وحلت محله المنافسة كانت الحرب هى الصورة العنيفة للعلاقات الدولية وكانت بديلاً لفشل الدبلوماسية .

الإسلام والحرب :

ولا ينكر الإسلام الحرب كظاهرة اجتماعية ، ولكنه يعمل على تهذيبها تهذيباً من حيث الحوافز التى تدعو إليها ومن حيث الأسلوب الذى تسلكه .
والحرب فى الإسلام واقع مسلم به ، ولكنها لدفع الشر واجتناب البلاء . وإعلاء الحق على الباطل فى قوله تعالى :
(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين)^(١) .

فطالما كان الشر قرين الخير ، والباطل قرين الحق ، والشر ينزو فلا يقل غربه إلا بمثل ما ينزوبه ، والباطل يستعلى جاحداً ، فإذا لم يكن للحق ما يعليه وما يدفع عنه ، استشرى الباطل وعم . فإن الحرب بعض ما يحمى الخير من الشر حين يدل الشر بقوته وجبروته ، ويعلى من الحق حين يستعلى الباطل بالقوة والجبروت . فالحرب فى الإسلام شرعه للدفاع عن النفس وحماية العقيدة وحرية الدعوة ، وليست شرعة للعدوان والبغي :
(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)^(٢) .

فتهذيب الحرب هو ألا تشن بغياً وعدواناً، لغير الحق ولغير الله، ولا تنكر المسيحية الحرب بل سلمت بها ففى متى:

« لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض، ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً. فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حمايتها، وأعداء الإنسان أهل بيته. من أحب أباً أو أمّاً أكثر منى فلا يستحقنى. ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى»^(١).

ولم تلجأ الجماعة المسيحية إلى السلم إنكاراً للحرب. ولكن لأنها لم تكن فى طاقتها، وما كانت بقادرة عليها، فقد كانت فئة قليلة من الفقراء لا معرفة لهم بالحرب أو الجلاذ فى مجتمع يدين لروما بالولاء ولجند روما بالسلطة، فأثرت المسألة وتحفّت بالدعوة حتى لا يقضى عليها فى مهدها، وظل المسيحيون الأوائل يتخفون فى دعوتهم قروناً طويلة، حتى اعتنق قسطنطين المسيحية فقويت شوكتهم وأنزلوا بخصومهم من ألوان البطش والقسوة ما أنزلوه بهم من قبل، ولم يشفع فيهم سماحة المسيحية ولا ما دعا إليه المسيح عليه السلام من الحلم والصفح.

ومن المتواتر المبالغ فيه أن المسيحية تدعو إلى السلام والصفح والتسامح والمحبة مالا يدعو إليه الإسلام وذلك لأن الإسلام أشهر سيفاً ولم تشهر المسيحية سيفاً وأن الدعوة إليه تمت على مشافر السيوف وهو ما يجافى سماحة المسيحية وتسامحها، والقياس بحدوده تلك قياس خاطئ فليس هناك ما يؤكد عزوف المسيحية عن امتشاق الحسام دفاعاً عن الدعوة لو قدرت عليه ولكن المؤكد أنها حين قدرت امتشقت الحسام وأشهرته صارماً عنيفاً. واقترفت باسم الصليب من القسوة والتنكيل بالعزل والأبرياء ما لم يعرفه الإسلام فى تاريخه الطويل. أما ما دعى إليه الإسلام من السلام - وهو ما يعنيه مسماء - والصفح والتسامح والمحبة فقد فاق فى المسيحية ولدنيا قياس لموقف واحد فى كل من المسيحية والإسلام هو موقف الأبناء المؤمنين من أبائهم الكافرين ففى متى على لسان المسيح ما سبق نصه وفى لوقا:

« إن كان أحد يأتى إلى ولا يبغض أباه وأمه وامراته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً»^(٢).

وفى الوقت نفسه يذكر القرآن:

(ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمّه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى

ولوالديك إلى المصير . وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(١) .

وإذا كان المسيح عليه السلام لم يخض حرباً ولم يشهر سيفاً فإنه لا يستنكفها ولا ينكر ما تنتهى إليه في معاملة الأعداء ففي لوقا على لسانه :
«أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي»^(٢) .

فالحرب في الإسلام هي الحرب لردّ العدوان ولتأمين حرية الدعوة ، أما العدوان فإن الإسلام ينكره أشدّ الإنكار بنصّ القرآن :
(ولا تعتدوا إن الله لا يحبّ المعتدين) .

فإذا كانت الحرب مما فطرت عليه الطبيعة البشرية فإن توقيها عسير ولكن تهذيبها يسير فلا تشرع إلا لغاية نبيلة سامية تعود على الإنسان وعلى الإنسانية جمعاء بالخير ، وكان محمد ﷺ يعرف أنه ملاق قريشاً على نكال وأنها لن تتركه في سلام يهدأ فيه إلى الدعوة حراً من كل قيد أو رهق أو إعنات . وأنه ملاق غير قريش أيضاً ممن يهضون الدعوة أو يقفون دون انتشارها ، كما كان يعرف أن حرية الدعوة لن تيسر بين قوم ينكرونها وقد يتصدون لها بإعنات ؛ لذلك كان الإعداد للحرب والتهيؤ لها حتى لا يفجأ العدو بما يكره ، وكان مما تمت عليه بيعة العقبة الثانية المنعة والحماية فترى البراء بن معرور سيد قومه وكبيرهم يقول وهو يبائع : « فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورتناها كابرأ عن كابر » ويقول محمد تأكيداً لعهدهم معهم : « أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » . ويرى سعد بن عباد أن يستوثق من صدق قومه قبل أن يبايعوا فيعترض وقد هموا بالبيعة قائلاً « يامعشر الخزرج ، أتعلمون علام تباعون هذا الرجل ؟ إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس .. » .
فالحرب بما كان موضع نظره وتقديره ، ولعلها كانت أوّل ما فكر فيه لحماية العقيدة ولتأمين حرية الدعوة ولكن كلّ شيء بميقات ولما يأت بعد فإن العباس بن عباد لما سمع صياح التجسس عليهم أثناء البيعة قال لمحمد : والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسافنا . فيقول محمد : لم تؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رجالكم . وكان العرب أهل حرب ونضال يمجّدون الفروسية ويعلمون من شأن الشجاعة ويتفنون بالبطولة والحرب صفقة مفاخرهم وأمجادهم ، فإذا كانت مما شرع الإسلام فاستجابة للروح

السائدة بين قوم بعث الإسلام أول ما بعث إليهم، فإنهم إذا كانوا «أمة بعيدة عن النزعات المادية الحقيرة التي عرف بها اليونان والرومان - كما يقول سيد أمير علي - إلا أنها بعيدة كذلك عن نزعات الإنسانية» فإذا كان الإسلام قد شرع الحرب فقد كان عليه أن يعلى منها وأن يهذيها وأن يطبعها بالنزعة الإنسانية العادلة.

وكانت حروب المسلمين أول ما كانت مع قريش حتى دانت لهم وحتى تم لهم فتح مكة وقضى على عبادة الأوثان قضاءً لا تقوم له قائمة بعد، وكانت حروبهم تلك بعد أن تهبأوا لها وأعدوا للنصر فيها كل عدة وعديد وجاءهم الإذن من عند الله في قوله تعالى: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير). الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور^(٨).

ترخيصاً لهم بقتال من ظلمهم وأخرجهم من ديارهم فهو قتال لرد الظلم أو دفع العدوان وهو ضرورة يحتملها الخير فلا يطغى الشر ولا يجوز على الإيمان فيهدم معاملة الله ناصر المؤمنين حتى يقوم منهم مجتمع الخير والصالح يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

فالخرب واجبة إذا كانت عادلة ولا تكون عادلة إلا لرد البغي ورفع الظلم والحفاظ على مجتمع الخير والصالح وهي «ضرورة - كما يقول الأستاذ أبو زهرة - أوجبها قانون الرحمة العادل وقانون الأخلاق والسلوك الإنساني المستقيم».

وهذا هو ما ذهب إليه معنى الجهاد في الإسلام وما يوجبه الجهاد على المسلم من بذل وتضحية. فالجهاد هو مجاهدة البغي ومجاهدة الظلم ومجاهدة العدوان حتى يأمن المسلمون على أنفسهم ويؤمنون حرية الدعوة لدينهم ولا يعنى ما ذهب إليه المفرضون في تفسيرهم للجهاد بأنه نشر الإسلام بالسيف وحمل الناس على اعتناقه كرهاً وغصباً فلم «يعمد المسلمون قط إلى القوة - كما يقول العقاد - إلا لمحاربة القوة التي تصدهم عن الإقناع فإذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها لأن القوة لا تحارب بالحجة والبينة وإذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء». ويراه هيكل «قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدون عن سبيل الله. وهذا هو القتال في سبيل حرية الدعوة إلى الله وإلى دينه وبعبارة تتمشى مع أسلوب

عصرنا المحاضر الدفاع عن الرأى بالوسائل التى يقاتل بها أصحاب الرأى . فإذا أراد أحدهم أن يفتن رجلاً عن رأيه بالدعابة وبالمنطق دون أن يحمله على ترك هذا الرأى بالقوة وبغير القوة من وسائل الرشوة والتعذيب ، لم يكن لأحد أن يدفع هذا الرجل إلا بإدحاض حجته وتفنيد منطقته لكنه إذا حاول بالقوة المسلحة أن يصدّ صاحب رأى عن رأيه وجب دفع القوة المسلحة بالقوة المسلحة متى استطاع الإنسان إليها سبيلاً» .

ويفسره سيد أمير على فيقول : « إن غريزة المحافظة على النفس والتى دعت نبى النصرانية العظيم أن ينصح حواربيه بالتأهب للدفاع لى الغريزة نفسها التى دعت المسلمين إلى امتشاق الحسام حين جار عليهم أعداؤهم قساة القلوب » .

ولا يرى « كارليل » ما يراه غيره من الغربيين من أن محمداً عوّل على السيف لحمل الناس على الإيمان بدعوته وبعده سخفاً لا يجوز « فمن غير المعقول أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل الناس ويدنوا بدعوته ، فإذا آمن به من آمن من القادرين على الحرب ومواجهة الأعداء فقد آمنوا به طائعين مصدقين وتعرضوا للعدوان قبل أن يقدرُوا على رده » .

والحرب صورة من صور الجهاد وليست هى كل الجهاد فالجهاد فى الإسلام لا يعنى الحرب وحدها ولا يعنى مجاهدة الآخرين فى سبيل الحق فحسب وإنما هو أيضاً مجاهدة النفس ومجاهدة الحياة وجهاد النفس فى القدرة على التغلب عليها وقهر أهوائها إذ كانت أماراً بالسوء ، وجهاد الحياة فى الصبر عليها والتغلب على مصائبها وأحزانها ففى مجاهدة الحياة قوله تعالى :

(ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلي أخباركم)^(١١) ، (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)^(١٢) .

(لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور)^(١٣) .
وفى جهاد النفس يقول جل شأنه : (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء)^(١٤) .

(١١) آل عمران : ١٨٦ .

(١٢) يوسف : ٥٣ .

(٩) محمد : ٣١ .

(١٠) البقرة : ١٥٥ - ١٥٧ .

(وأما من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى . فإنّ الجنة هي المأوى)^(١٣١) . وقوله تعالى :

(أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرامة فأكون من المحسنين . بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين)^(١٣٢) .

والجهاد جهاد بالنفس والمال وبكل ما يعين عليه مفصلاً في قوله تعالى :
(إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض فساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إنّ الله بكل شيء عليم)^(١٣٣) .
(الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفاتزون)^(١٣٤) .

(لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً)^(١٣٥) .

وحين أذن للمسلمين بالقتال ، كان لقتال المشركين من قريش فهم أول من تعرض للمسلمين بالإيذاء وأخرجوهم من ديارهم بغير حق ، فكان قتالاً كما هو في سبيل الله فإنه في سبيل المستضعفين الذين ظلموا أيضاً كما في قوله جل شأنه :

(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً)^(١٣٦) .

فلما أخذ اليهود في المدينة يأتمرون بالمسلمين ويوقعون بينهم ثم لجؤا في الغواية فانتهكوا

(١٣٦) التوبة : ٢٠ .

(١٣٧) النساء : ٩٥ .

(١٣٨) النساء : ٧٥ .

(١٣٩) التازعات : ٤٠ - ٤١ .

(١٤٠) الزمر : ٥٦ - ٥٩ .

(١٤١) الأنفال : ٧٢ - ٧٥ .

من حرّمت العرب ما ياباه الإسلام قاتلوهم هم الآخريّن وكان بنو قينقاع أوّل من نكث العهد إذ قدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بنى قينقاع بحلية لها . فأرادوا أن تكشف عن وجهها وهى تأبى ، فجاء يهودى على غفلة منها وشبك طرف ثوبها إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سواؤها . فضحكوا . وصاحت فوثب على الصانع رجل من المسلمين فقتله ، وقام اليهود للمسلم فقتلوه ، ووقع الشر بين اليهود والمسلمين ، وطلب محمد إلى اليهود أن يكفوا أذاهم ويحفظوا عهد المودعة وإلا ناهم ما نالت قريش ، فاستخفوا بوعيده ، وقالوا له : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنّا نحن الناس » فحق للمسلمين قتالهم حفاظاً على هيبتهم . ودارت الدائرة على بنى قينقاع فأجلاهم الرسول عن المدينة ، ثم أجلى اليهود من بنى النضير لمثل ما كان من بنى قينقاع من نقض للعهد وكيد للمسلمين حتى ذهبوا في كيدهم وهم كتابيون إلى تفضيل الشرك على الإسلام ، حين ذهب يهود بنى النضير بعد جلائهم عن ديارهم ينتصرون لقريش على محمد فسألهم هؤلاء : يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأوّل وأصحاب العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير من دينه ؟ فأجاب اليهود : بل دينكم خير من دينه وأنتم أوّل بالحق منه وفي ذلك نزلت الآية الكريمة :

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً^(١٩١) .

وفي قتال اليهود نزلت الآية :

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون^(١٩٢) . ثم كان قتال المشركين كافّةً في قوله تعالى :

(وقاتلوا المشركين كافّةً كما يقاتلونكم كافّةً واعلموا أن الله مع المتقين^(١٩٣) . فالقتال في الإسلام شريعة أوجبها الضرورة لردّ العدوان ولحماية العقيدة وحرية الدعوة لها ، وفيها عدا ذلك فهى عدوان لا يحبه الله .

فإذا كانت المبادرة بالحرب لردّ عدوان يوشك أن يقع بالمسلمين فإن البراعة تقتضى أن يبادر المسلمون عدوهم قبل أن يبادرهم حتى يضمنوا النصر ، فالمبادرة من مبادئ الحرب

الأساسية ولا تعدّ المبادرة حينذاك عدواناً أو من قبيل الحرب العدوانية . ولا تكون المبادرة إلا بعد أن تتأكد نية العدوان كما جاء في حديثه عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل ومن معه وقد بعثهم لفتح اليمن فهو يقول :

« لا تقاتلوهم حتى تدعوهم ، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم . فإن بدءوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً ثم أروهم ذلك وقولوا لهم : هل إلى خير من هذا سبيل فلأن يهدى الله على يديك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت . »
وما دام اختلاف العقيدة كاختلاف الآراء والمذاهب يحمل على العداوة واليغضاه ما دامت النفس البشرية قد جبلت على العداوة والكراهية لمن يخالفها فستبقى راية الجهاد مرفوعة عالية طالما بقيت نعمة الشرك على الوحداية قائمة ، وطالما كان هناك من ينكر رسالة الاسلام أو يعرض له بسوء ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحاجهم على الله » .

وليس في محاربة الشرك والكفر إلا إقراراً للنظام الاجتماعي ووحدة العقيدة ، وما دام الإسلام قد بعث ليعلى من كلمة التوحيد ويقيم من الشعائر والنظم ما تصلح به حال الإنسانية جمعاء ، فإن الحرب في سبيله ليست من قبيل العدوان أو التعصب وليست هدماً لحرية الرأي أو حرية العقيدة ، فالأساس الذي تقوم عليه الحرية أن تتوافق مع القانون وما تدين به الجماعة من نظم وعقائد حتى لا تكون الحرية بغير قيد من القانون أو النظم الاجتماعية هدماً لحرية الآخرين ، ودعوة الإسلام إلى قتال الشرك دعوة إلى إقرار عقيدة الأصل في وجودها ومبعتها أن تعم الناس جميعاً ، فإذا لم يهد اليقين الناس إليها فإن تسليمها بقيام الشرك إلى جوارها يناقض ولا شك الأساس الذي قامت عليه وبعثت من أجله ، ولا يتنافى مع الحرية أن يحارب الخير الشر ويقضى عليه كحرب المجتمع الحديث لرذيلة الرق ، والقانون في ذاته ليس إلا إرغام الناس بالقهر والإكراه على السلوك القويم ، والإرغام هو الأساس في قيام السلطة ممثلة للإرادة العامة ، فإذا اجتمعت الإرادة العامة على عقيدة من العقائد دانت لها وآمنت بها ، فإن ما يناقض الإرادة العامة أو يخرج عليها يعدّ خروجاً على القانون تقمعه السلطة ، وكان الأمر بقتال المشركين كافة بعد أن عم الإسلام أو كاد شبه الجزيرة العربية في قوله تعالى :

(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين)^{١٧٢} . ومع ذلك لم

يطلق الإسلام الحرب أساساً لإقرار العقيدة وسلامة النظام الاجتماعي، وإنما قيدها بما لا يجعلها أساساً للعلاقات بين الجماعات والدول، حيث يقوم السلم أساساً لها، وكان تشريع الإسلام للحرب للحد منها وكبح جماحها قبل أن يصل المجتمع الدولي إلى تشريعها بعشرة قرون من الزمان وقبل أن تهتدى الجماعات السياسية إلى ما يعرف بالقانون الدولي في القرن السابع عشر الميلادي.

الإسلام وقانون الحرب:

وضع الإسلام قواعد للحرب تحد منها وتقيدها، ما دامت الحرب - كما قلنا - ظاهرة اجتماعية أصيلة تتمثل غريزة المقاتلة في الفرد، لا تستطيع الجماعات الإنسانية أن تتحرر منها وإن استطاعت أن تهذبها وتستبدل بها تنظيم العلاقات فيما بينها.

وقد جاء الإسلام في وقت لم يعرف المجتمع الدولي فيه ما نعينه بالالتزامات الدولية الحديثة أو قوانين الحرب، أو آدابها، وكان المرف وحده هو الذي يحكم تلك العلاقات، وكانت مصلحة الغالب هي التي تكيفها وتضع لها القواعد والأصول، فلم يكن قانون الأمم في التشريع الروماني «قانوناً دولياً» - كما يقول ول ديورانت - يتضمن من الأحكام والالتزامات ما ترضيه الدول عامة لتحديد علاقاتها ببعضها» وإنما كان نوعاً من التوفيق بين القانون الروماني والقوانين المحلية للدول التي سادتها روما وكان بعضها أقدم منها وأعرق حضارة كدول الشرق الأدنى القديمة، فإذا كان فقهاء التشريع الروماني قد وصفوا قانون الأمم بأنه قانون عام يشمل الأمم جميعاً، فإن «ول ديورانت» يعده من قبيل «التفاخر الوطني الكاذب» فلم يكن غير القوانين المحلية للأمم المغلوبة صيغت بحيث تنفق مع أوضاع السيادة الرومانية أو هو مجموعة القوانين الخاصة بالأجانب من جميع الأمم المتمدنة الخاضعة لروما، وكان يقابله القانون المدني وهو مجموعة القوانين الخاصة التي كان حق التمتع بها قاصراً على الوطنيين الرومانيين بتعبير «على ماهر».

فالقانون الدولي مصطلح حديث كان «جرمي بنتام» أول من صاغه عام ١٧٨٠، وبمعناه الضيق الذي أخذ به بعض الفقهاء بوصفه تنظيمًا للعلاقات بين الدول، لا نراه إلا وليد الفكر الأوربي الحديث، فإذا أخذناه بمعناه الواسع الذي أخذ به آخرون من الفقهاء بوصفه تنظيمًا للعلاقات الإنسانية فإننا نرده إلى أبعد من ذلك بكثير إذ نراه في أسفار العهد القديم كما نراه في شريعة هورابي، وتشريعات سولون. وفي مسرحيات أرسطوفان ما يتناول فكرة الحرب والسلام في نقده اللاذع للحرب الدائرة بين أثينا وأسبرطه وتنديده بالصراع

الذى يقتل فيه اليوناني أخاه، ودعوته للسلم. وكان ذلك في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد.

فإذا كان الخوف من الحرب أو العدوان هو الذى حمل الجماعات الإنسانية الأولى على التماسك الاجتماعى فإن الخوف من الحرب هو الذى حمل الجماعات المتقدمة على تنظيم العلاقات فيها بينها وهو نفسه ما حمل المشرعين وفقهاء القانون وفلاسفة السياسة على المناداة بالسلام ووضع القوانين التى تنظم العلاقات الدولية منعاً للحروب، فإذا كانت النظرة الإنسانية الشاملة هى التى حملت المشرعين العظام على نبذ الحروب كأساس للعلاقات التى تحكم البشر، فإن الأديان السماوية قد نبذت الاعتداء وأنكرت العدوان فنادت المسيحية بالمحبة بين البشر ولم تأت بتشريع ينظم علاقات الناس أو الجماعات، ونادى الإسلام بالرحمة والإخاء وشرع من القواعد ما ينظم تلك العلاقات ولما كانت الحرب ظاهرة اجتماعية أصيلة في النفس البشرية تقرب من النزعة الفطرية لم ينكرها كظاهرة وإن أنكرها كغاية في ذاتها فلم يفلح بها في قوله تعالى:

(كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (٣٢).

وكانت شريعة الحرب في الإسلام لقمع هذه الظاهرة وتهذيبها ففرض منها ما يقتضيها من ضروب الدفاع عن النفس والمال وحرية العقيدة. وأنكر ما عدا ذلك من أسباب وحوافز وشرع لها من القواعد والأصول ما يهذبها ويسوى من نزعتها الأصلية للخراب والدمار ما يمكن أن نسميه آداب الحرب أو أخلاقياتها أو قانون الحرب في المصطلح الحديث.

وأول قاعدة فرضها الإسلام للحرب ألا تكون حرباً عدوانية في قوله تعالى:

(ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين).

فالأمر بعدم الاعتداء جازم مانع.

فإذا كانت الحرب فإما:

جهاداً في سبيل الله في قوله تعالى:

(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (٣٣).

وقوله جل شأنه:

(فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل الله

فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً^(٣٥).

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً^(٣٦)).

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم^(٣٧)).

(إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص^(٣٨)).

أو دفعاً لفتنة في قوله جل وعلا :

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصيرا^(٣٩)).

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين^(٤٠)).

أو ردّاً على أذى ينال النفس أو المال أو حيفاً بمستضعف أو بغى طائفة على طائفة ولو كانا مؤمنين فأذن للمسلمين بقتال من ظلمهم وأخرجهم من ديارهم في قوله تعالى :
(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)^(٤١).

(واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم...)^(٤٢).

وأذن بالقتال لرد الحيف عن المستضعف :

(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان...)^(٤٣).

فإذا بغت طائفة على طائفة ولو كانا من المؤمنين فعلى المسلمين قتال التي تبغى حتى تفيء

إلى الحق :

(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينها فإن بغت إحداها على الأخرى

فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينها بالعدل وأتسطوا إن الله

يحبّ المقسطين)^(٤٤).

(٣٥) البقرة : ١٩٣ .

(٣٦) الحج : ٣٩ - ٤٠ .

(٣٧) البقرة : ١٩١ .

(٣٨) النساء : ٧٥ .

(٣٩) المجرات : ٩ .

(٤٥) النساء : ٧٤ .

(٤٦) النساء : ٧٦ .

(٤٧) التوبة : ١١١ .

(٤٨) الصف : ٤ .

(٤٩) الأنفال : ٣٩ .

وفي غير ذلك نهى الإسلام عن الحرب وجنح للسلام .
(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) (٢٥).

(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) (٣١).

(..... فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً) (٢٧).

(ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا) (٢٨).
فإذا كانت الحرب فإن لها آدابها وأخلاقياتها فليست الحرب في الإسلام للتدمير ولا للتخريب ولا للتعذيب ولا لانتهاك الحرمات ولا لقتل المسلمين من رجال الدين ولا العجزة من الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال وإنما هي للقضاء على العدو الذي يبغى الشر ويريده ويفتك أشد الفتك بالمسلمين إن ظفر بهم أو نال منهم ، فالشدّة على المحاربين قرين الرحمة بغير المحاربين ، ولقد كان عليه الصلاة والسلام يقول : «أنا نبي الرحمة وأنا نبي الملحمة» وكان يطلب إلى جند الإسلام الأناة والتريث قبل القتال فيقول «تألفوا الناس وتأنوا بهم . ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل مدر ووبر إلا أن تأتوني بهم مسلمين أحب إليّ من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم» . وكان لا يبغى القتال حتى يرى إلا فكاًك منه ويقول : «لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فأصبروا» .

ونستبين شريعة الحرب في الإسلام مما جرى عندما جهز عليه الصلاة والسلام جيش أسامة لحرب الروم فقد أمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عماية الصبح وأن يمعن فيهم قتلاً وأن يحرقهم بالنار وأن يتم ذلك دراكاً حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه ، فإذا تم له النصر فليسرع بالعودة غانماً ظافراً» .

فلما أكمل أبو بكر بعث أسامة وكان قد وقف بالجيش بعد أن اشتد بالنبي مرضه الأخير وشاء له أن يسير خطب في الجيش وهو يودعه قائلاً :

«أيها الناس قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً

(٢٧) النساء : ٩٠ .

(٢٨) النساء : ٩٤ .

(٢٥) الأنفال : ٦١ .

(٣١) البقرة : ٢٠٨ .

ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مشمرةً، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا للمأكلة وسوف تمرّون بأناس قد فرغوا بأنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه. وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خففاً. اندفعوا باسم الله، أقناكم الله بالطعن والطاعون». فالجرب وإن كانت لها أصولها من الشدة والفتك بالعدو فإنها لا تعني إيقاع الأذى بغير المحاربين، وعن رواح بن ربيعة: أنه خرج مع رسول الله ﷺ في غزوة غزاها فمرّ رسول الله وأصحابه على امرأة مقتولة، فوقف عليها ثم قال: «ما كانت هذه لتقاتل» ثم نظر في وجوه أصحابه وقال لأحدهم «الحق بخالد بن الوليد فلا يقتل ذرية ولا عسيفاً»^(٣٩). ولا امرأة».

وغضب عليه الصلاة والسلام حين سمع بقتل بعض الأطفال في غزو فقال غاضباً: «ما بال قوم تجاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية ألا لا تقتلوا الذرية ألا لا تقتلوا الذرية ألا لا تقتلوا الذرية». ونهى عن المثلة وإن لجّ فيها العدو فلم يمثّل بأحد من قتلى المشركين لتمثيلهم بجثة حمزة بن عبد المطلب في غزوة أحد وقال: «إياكم والمثلة» وبما هو قريب من هذا ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله. قال: مرّت بنا جنازة فقام لها النبي وقمنا فقلنا يا رسول الله إنها جنازة يهودي، فقال: «أو ليست نفساً، إذا رأيتم الجنازة فقوموا». وشرع الإسلام لأسرى الحرب كما شرع للحرب، وكان الأسرى قبل الإسلام يقعون في رقّ أسريهم ولم يكن لهم ما يحميهم من القتل أو الاسترقاق، وكان أول أسر في الإسلام أسرى بدر وفيهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وكانا على المسلمين أيام مقامهم بمكة بلاءً وشراً يوقعان بهم الأذى والضرب وارتضى النبي قتلها، ولعله رضى عن قتلها حتى يكونا عبرة لمن تسوّل له نفسه أذى المسلمين أو إيقاع الضرّ بهم، ولعلها الشدة التي تقتضيها الرحمة والدعوة في بدايتها فلما انتصرت وأمنت وإما قضى على أصحابها تماماً، وما نظن المشركين كانوا يبقون على المسلمين لو ظفروا بهم ولم يكن قد نزل على النبي في أسرى الحرب وحى من قبل وفكر فيما يصنع بهم فلم يهتد إلى رأى فاستشار فيهم المسلمين وترك لهم الخيار بين القتل والفداء وكان أبو بكر ألين للأسرى من عمر فرأى أن يمنّ النبي عليهم ويقبل منهم الفداء بينها رأى عمر أن تضرب رقابهم إذ هم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة وانحاز المسلمون فريق إلى رأى أبي بكر وفريق إلى رأى عمر، وخرج عليه النبي

وهم على خلافهم وكان قد احتجب عنهم ساعة يفكر في هذا الأمر فشاورهم فيما يصنع وانتهى الرأى بهم إلى قبول الفداء وفيه نزلت الآية : (ما كان للنبي أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيها أخذتم عذاباً عظيماً)^(٤٠).

والمعنى واضح فلا يجوز للمسلمين أن ينصرفوا عن الجهاد لغرض من أغراض الدنيا فلا يكون الأسر طمعاً في فداء ولا يكون الفداء وازعاً عن الشدة بالكفار وما زالت الدعوة وما زال المسلمون قلة يستهين بهم أهل الكفر فإن لم تقع الحشية في قلوبهم من المسلمين طمعوا فيهم ولجأوا في عدوانهم وحرهم ، ولم تدعن قريش إلا بعد أن رأت من قوة محمد مالا قبل لها به ، ودخل المسلمون مكة من غير حرب ، وبعدها أقبلت وفود العرب تترى على النبي معلنة إسلامها ، فلم يعد لها بعد أن أسلمت قريش وأذعنت لدين الله ، وبعد أن انسحب الروم أمام المسلمين في تبوك فكان لانسحابهم من الأثر في نفوس العرب ما كان لانتصار المسلمين في حنين وحصار الطائف إن لم يزد ، وبعد أن قرئت على الحجيج سورة براءة وأعلن على بن أبي طالب بلاغ النبي إلى العرب كافة « أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يخرج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته » . لم يعد لها بعد أن أدركت من قوة المسلمين مالا قبل لها برده إلا أن تعلن إسلامها ، وفي موقف القدرة يجوز العفو وتستحب الرحمة ، وفي غير موقف القدرة يكون العفو ضعفاً وليناً يحمل على اللجاجة ويغري بالمقاومة مما يعوق الدعوة ويبدد دماء المسلمين فإذا قبل الفداء في الأسرى ، فليس هناك ما يحول دون عودتهم إلى حرب المسلمين مرة أخرى ، وقد كان بين أسرى بدر شاعر هو أبو عزة عمرو بن عبد الله ابن عميرا الجمحي استعجل النجاة وطلب الأمان فقال للنبي : « لي خمس بنات ليس لهن شيء فتصدق بي عليهن يا محمد وإني لمعطيك موثقاً لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبداً » . فأمنه النبي وأرسله من غير فداء وكان وحده بين الأسرى من ظفر بالأمان دون فداء ، ولكنه ما لبث أن نكث عهده وعاد فقاتل المسلمين في أحد فأسر وقتل .

فإذا لم يجز الله للنبي « أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض » ما يبرر قتل أسرى بدر فإنه التبرير الذي ينتهي حين ينال المسلمون النصر ويحققون المنعة فهو إلى الحزم أقرب منه إلى القسوة وإلى الرحمة أقرب منه إلى الملحمة إذ في قتلهم نجاة للمسلمين من أن يعودوا إلى قتلهم كما أن في إهراق دم الملجئ في الكفر ممن يقاتلون المسلمين يبغون قتلهم نجاة أيضاً

للمسلمين وحقناً لدمائهم التي يمكن أن تتبدد في حرب لا يكون النصر فيها حاسماً ليعود القتال من جديد. وما دامت الحرب قد شرعت لإعلاء الحق فأولى بها ألا تدع من الحزم والشدة للقضاء على الكفر والكفار ما يدع اللين والعفو من بقاء الكفر إن لم يذعن الكفار للحق، واللين والعفو أليق عند القدرة من الشدة، فكانت شدة النبي بالكفار من قريش وباليهود من بني النضير وبني قريظة يوم كان المسلمون فئة قليلة لا تستأمن من غدر اليهود ولا تأمن عدوان قريش. ولم تكن شدة القسوة فقد ترك لبني النضير أن يخرجوا سالمين ومعهم ما يكفيهم من زاد ومتاع لا يزيد عن حاجتهم شيئاً، وترك لبني قريظة أن يختاروا من يحكم بينهم وبينه، ولكنها شدة الرحمة بالمسلمين من أن ينالهم اليهود بغدر أو بسوء، وشدة الحرص على سلامة الدعوة من أن يقف في سبيلها ما يعوقها أو يعوق سرعة انتشارها.

فلم تكن القسوة ولم يكن ظمأ هذا الدين الجديد إلى الدماء - كما يدعى غير واحد من المستشرقين - ولكنه الحزم الذي يأخذ به القائد من أمور جماعته ما يجنبها الضرر ويبعد بها عن أن ينالها سوء، فإذا كانت القدرة فهو عفو الأنبياء، وشيعة الرسل، يعفو عن مشركي مكة وقد عذبوه وعذبوا أصحابه واثتمروا به ليقتلوه من قبل وقاتلوه في بدر وفي أحد وألبوا عليه العرب، ولو استطاعوا لفتكوا به وبأصحابه، ويعفو عن عكرمة بن أبي جهل وعن صفوان بن أمية على عدائهما وعداء أبويهما له وقد قاوما جيش المسلمين غداة دخوله مكة، ويعفو عن وحشى قاتل عمه حمزة وعن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان أول من مثل بقتلى المسلمين ومثل بجثة حمزة ولاكت كبده وكانت قد حرضت وحشياً على قتله، كما يعفو عن غيرهم عفو القادر المالك لأمره.

فالعفو ما كان عند القدرة وتلك شيعة الأنبياء وشرعة الإسلام دين الفطرة ودين الإنسانية عامة، فهذا محمد الرجل وقد رأى عمه حمزة وقد يقر بظنه ومثل به فحزن أشد الحزن حتى قال: «لن أصاب بمثلك أبداً. ما وقفت موقفاً قط أغيظ إلى من هذا». ثم قال: «والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمثل بهم مثله لم يمثله أحد من العرب» فنزل قوله تعالى:

(وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون)^(٤١).
ونزل محمد على أمر ربه فعفى وصبر ونهى عن المثلة.

ويتحدّد الحكم في الأسرى في قوله تعالى :

(فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمّا منّا بعد وإمّا فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يغفر الله لهم)^(٤٢).

فالأسرى هم حصيد المعركة من الأحياء بعد النصر وتسليم العدو، فإمّا يعفى عنهم ويسرحوا أحراراً، وإمّا سرحوا بعد أن يؤدّوا الفداء وهو بقيمة كل أسير وقدرته ومكانته وكان الفداء يومئذ ما بين أربعة آلاف درهم وألف للأسير، ومن لا يملك شيئاً يمين عليه بحريته .

ويستوى الأسير في عجزه وقلة زاده وما له مع المسكين واليتيم وله مثل ما لها من رعاية وإحسان بقوله تعالى :

(ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنا نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً)^(٤٣).

دار الحرب ودار السلم :

قسّم المتأخرون من فقهاء المسلمين العالم المعروف وقتذاك إلى قسمين : دار السلم ودار الحرب وهو ما جرى عليه علماء اللاهوت من المسيحيين في العصور الوسطى حين قسموا العالم إلى قسمين : العالم المسيحي ، والعالم الوثني .

ودار السلم أو دار الإسلام هي ما كانت للمسلمين لهم فيها المنعة والقوة وهم عليها السيادة والسلطان، أما دار الحرب فقد اختلف فيها الفقهاء فذهب أكثرهم إلى أنها الدار التي ليس للمسلمين عليها حكم ولا سلطان وليس لهم فيها منعة وليس لهم معها عهد ويتوقع المسلمون العدوان من جانبها . بينما اشترط لها البعض الآخر ومنهم أبو حنيفة والزيدية فقالوا إن الدار لا تكون دار حرب إلا بشروط ثلاثة :

أولها : ألا يكون الحاكم المسلم من المنعة والسلطان ما يحول بينه وبين تنفيذ أحكام الشريعة .

وثانيها : أن تكون في جوار من غير المسلمين يهدّد أمنهم أو يكون خطراً عليهم .

(٤٢) محمد : ٤ .

(٤٣) الإنسان : ٨ - ٩ .

وثالثها: ألا يكون للمسلم أو الذى من رعايا المسلمين من حق الأمان الأوّل ما يأمنون به فى إقامتهم، فإذا استولى المسلمون على بلاد فأمنوا أهلها ثم جلّوا عنها وقام عليها من اعترف بحق الأمان الذى أقره المسلمون فليست بدار حرب، فإذا سلبوا حق الأمان ونقضوه وحاربوا المسلمين فهى دار حرب، حتى وإن أقرّوا أماناً جديداً. وبين دار الحرب ودار السلم أو الإسلام ما يعد دار عهد أو دار مودعة ورأى بعض الفقهاء أنها مما يدخل فى دار السلم إذ لم يعقد المسلمون عهدهم معها إلا وهم على منعة وقوة فإذا لم يكن القائمون على الحكم فيها - أو أهل السلطة والمنعة بتعبير الفقهاء - من أهل المودعة، انتفت المودعة بانتفاء العهد.

وهذا التقسيم مما أوجبه تطور العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم، ولا يناقض ما ذهب إليه فقهاء القانون الدولى فى العصر الحديث إلا بما يقتضيه اختلاف الزمان والمكان، فالدولة الإسلامية إمّا فى حرب وإمّا فى حالة حرب وإما مودعة أو مهادنة، ولا تستوجب الشريعة قيام هذا التقسيم وليس فى القرآن ولا فى السنة ما يشير إليهما وإنما هى من اجتهاد الفقهاء بما يطابق علاقات الدولة الإسلامية بغيرها من الدول المعاصرة.

ولم يكن المجتمع الدولى من السعة والشمول والتعدّد ما نراه فى العصر الحديث بعد سيادة الدولة القومية وانحلال سلطة الإمبراطورية فهو عالم مسيحي واحد وما عداه من البرابرة والوثنيين والملحدين كما تراه الكنيسة وقد آلت إليها سلطة الدين وسلطان الدنيا، وكان المسلمون فى اعتبارها كفاراً وهراطقة، وهو فى نظر المسلمين دار حرب ودار سلم ودار عهد ومودعة وهو ما اقتضاه الواقع التاريخى الذى واجهته الدولة الإسلامية وخاصة بعد انحسار موجة الفتح الإسلامية واستقرار الدولة على عهد العباسيين وكان اجتهاد الفقهاء توفيقاً رائعاً بين الشريعة والواقع التاريخى.

ولا يختلف ما ذهب إليه العالم المسيحي فى العصور الوسطى عما ذهب إليه مشرعو القانون الدولى فى أوروبا بعد قيام الدولة القومية الحديثة، فقد كان عليهم أن يوفقوا بين ما ذهب إليه الفكر المسيحي فى العصور الوسطى وبين قيام الدولة القومية التى قامت على أنقاض الوحدة السياسية للعالم المسيحي، فكان ما ذهبوا إليه من تشريع بقصد تنظيم العلاقة بين الدول المسيحية وحدها، فأنكروا أن يكون لغيرها بما فيها الدول الإسلامية، ما لبعضها البعض من حقوق والتزامات. فلم يكن جروتوس فى كتابه - حقوق الحرب والسلام - وقد نشر عام ١٦٢٥، يعى من المعلومات التى تحكم الدول أكثر مما وعاه المشرع الرومانى فى قانون الأمم، مشوباً بفكرة مبهمّة عن الصلة بين القانون الطبيعى وقوانين

الإنسان، وظلّ هذا الإلزام قائماً في التشريع الأوربي للعلاقات الدولية، فبينما يذهب القانون الطبيعي إلى فكرة المساواة العامة والالتزام المتكافئ بما تقتضيه كَلْيَة القانون الطبيعي فإن قوانين الإنسان لا تَسُوغ المساواة العامة ولا الالتزام المتكافئ إذ تقيم الفواصل بين ما هو أوربي وما هو غير أوربي فلم تَسُوغ الدول الأوربية والدول الاسيوية والإفريقية، وظلت تركيا بمنأى عن المجتمع الدولي كما عناء الأوربيون حتى حرب القرم إذ جاء في المادة السابعة من معاهدة مارس ١٨٥٦ أن الباب العالي عضو في المجتمع الدولي الأوربي وله نفس الحقوق والمزايا التي يكفلها القانون الدولي لجماعة الدول الأوربية، ومع هذا الاعتراف ظلت الامتيازات الأجنبية قائمة في تركيا مع ما فيها من مساس بسيادة الدولة. ولم تنل أكثر الدول الاسيوية هذا الحق إلّا في وقت متأخر، وظلّت نظرية لوريير في سلطان القانون الدولي قائمة حتى قيام الأمم المتحدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وقد قسّم لوريير العالم إلى ثلاث نوعيات: عالم متمدن وعالم غير متمدن وعالم بدائي متوحش. وافترض لكل منها قانوناً تعامل بمقتضاه.

فالقواعد التي وضعها فقهاء الشريعة الإسلامية لتنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم وتقسيم العالم إلى دار حرب ودار سلم ودار مودعة أو مهانة كانت اجتهاداً يوائم بين ما هو قائم فعلاً وبين روح الشريعة فاختلفوا في تفسير طبيعة العلاقات وأصلها فمنهم من ردّها إلى الحرب وما تقتضيه الدعوة إلى جهاد الكفار جهاداً لا سلم فيه إلّا أن تكون هدنة موقوتة ومنهم من ردّها إلى السلم واعتبار الحرب حالة موقوتة بدواعيها وهي دواع عارضة تقتضيها ضرورة الدفاع عن المسلمين وتأمين حرية الدعوة.

إلّا أن الجهاد الديني - كما قلنا - لا يتوقف على الحرب وحدها وإنما هو جهاد بكل ما يملك المسلم من قوى الجهاد، وحين كانت الدعوة الإسلامية تواجه القوّة المادية للقضاء عليها، كان عليها أن تسلك نفس السبيل في مواجهة القوّة بالقوّة وقد ظلّ النبي يدعو مشركي قريش ثلاثة عشر عاماً بالبرهان والحجّة ويحتكم إلى العقل فلا يقابل بغير الإيذاء ورغب في أن يكف اليهود أذاهم عنه وعن المسلمين ويناشدهم المسألة ككتابيين فلا يجد منهم غير الدسّ والوقيعة وتآليب المشركين على المسلمين مخالفين في ذلك أصول عقيدتهم السماوية، فلم يعد له من سبيل إلّا أن يواجههم بمثل ما يواجهونه به من دفع القوّة بالقوّة لحماية العقيدة وحرية الدعوة فإذا أمن المسلمون على حياتهم ودينهم وكانت لهم الحرية فيما يدعون إليه من الحق، حرية لا يقف دونها إعنات أو قيد فمالم حاجة إلى حرب أو قتال فالأساس الذي قامت عليه الدعوة هو المسألة والسبيل إليها هو برهان العقل ومنطق الوجود.

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين^(٤٤)).
وليس للنبي أن يكره الناس على الإيمان ولكن عليه أن يدعوهم إليه .
(ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين^(٤٥)) .

وللناس الحرية فيما يشاءون : إيماناً أو كفراً ما داموا قد نبثوا بالدعوة وعرفوا بها .
(وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً^(٤٦)) .

(إن هذه تذكرة . فمن شاء اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا^(٤٧)) .
(إن هو إلَّا ذكرٌ للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم^(٤٨)) .

ونشر الإسلام هو بدعوة الناس إليه دعوة تقوم على الإقناع ومخاطبة العقل والضمير والواجب فيها هو البلاغ ، فالدعوة أیه دعوة لا تنتشر ما لم تبلغ الناس ويدرك الناس مقاصدها ومراميها من الحق والخير ، والأصل فيها هو التكليف إذ يصطفى الله الرسل ويأمرهم بالبلاغ ، وقد اصطفى الله محمداً لدعوة الحق وأمره بالبلاغ وأن يعد نفسه للرسالة في قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الْمَدَّثَرُ قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ^(٤٩)) .

ووقف محمد بالدعوة على آله وأهل بيته يسر بها إليهم ولم يلود به ويطمئن إليه وظل على ذلك ثلاث سنوات ، أمره الله بعدها أن يظهر ما خفى من أمره فيصل بالدعوة إلى عشيرته الأقربين :

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ^(٥٠)) .

ثم كان الأمر بالدعوة عامة
(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين^(٥١)) .

(٤٨) التكوين : ٢٧ - ٢٨ .

(٤٩) المدثر : ١ - ٧ .

(٥٠) الشعراء : ٢١٤ - ٢١٦ .

(٥١) الحجر : ٩٤ .

(٤٤) النحل : ١٢٥ .

(٤٥) يونس : ٩٩ .

(٤٦) الكهف : ٢٩ .

(٤٧) الزمل : ١٩ .

وصدع محمد بأمر ربه وانتقل بدعوته من عشيرته الأقربين إلى أهل مكة جميعاً، يدعوهم بالحسنى ويناشدهم العقل والضمير، فلا يزيد من أعرض عنه إلا استهزاءً به ونكالاً بمن أسلم ولا يزيد هو إلا صبراً وصدوراً ودعوةً للحق.

ولم يكن محمد في دعوته إلا بشيراً ونذيراً، لا يقسر الناس عليها ولا يرغمهم على اعتناقها كرهاً، فاليقين سبيل الهداية والعقل هدى الإيمان وما عليه إلا البلاغ المبين يذكره الله به ويكرره عليه فيها نزله عليه من آي السور المكية والمدنية على السواء فمن السور المكية :

(هذا بلاغ للناس لينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب^(٥٦)).

(فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين^(٥٧)).

(وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين^(٥٨)).

(وما علينا إلا البلاغ المبين^(٥٩)).

(فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ^(٦٠)....).

ومن السور المدنية :

(فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين

أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد^(٦١)).

(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ

المبين^(٦٢)).

(ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون^(٦٣)).

(قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن

تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين^(٦٤)).

(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين^(٦٥)).

وبما كلف به من بلاغ بعث برسله إلى الملوك والأقيال في روما وفي فارس وفي الحبشة وإلى

غسان واليمن ومصر يدعوهم إلى الإسلام، ويقول، هــجـ. ويلز - دون سند - أنه بعث إلى

تايتونج عاهل الصين فيمن بعث إليهم وإن كنا لا نستبعد ذلك ما دامت الدعوة للناس

(٥٦) آل عمران : ٢٠.

(٥٨) المائدة : ٩٢.

(٥٩) المائدة : ٩٩.

(٦٠) النور : ٥٤.

(٦١) التغابن : ١٢.

(٥٢) إبراهيم : ٥٢.

(٥٣) النحل : ٨٢.

(٥٤) الفتن : ١٨.

(٥٥) يس : ١٧.

(٥٦) الثورى : ٤٨.

كافةً وكان العرب على معرفة بالصين، وفي حديثه عليه الصلاة والسلام «أطلبوا العلم ولو في الصين» وإن كان هذا الحديث موضع شك، فليس في الشك فيه ما يدحض مرماه. ولم يخش محمد ما قد تجره تلك الدعوة على بلاد العرب من شر الروم وشر الغرس وهما أقوى دولتين على ظهر البسيطة وقتذاك، كما أنها يحصران بلاد العرب في دائرة نفوذها، فقد كان نبي دعوة فحسب لا ينشد ملكاً، ولا يرى الأمور كما يراها قادة الدول وساستها، وكل ما يراه أنه يبلغ رسالة ربه إلى الناس كافةً، فخرج يوماً على أصحابه لا ليأخذ رأيهم فيها انتواه فليس له أن يستشير فيها أمر الله وإنما ليقول لهم: «أيها الناس. أن الله قد بعثني رحمةً للناس كافةً فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم. قالوا: «وكيف اختلف الحواريون يارسول الله؟ قال: «دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضى وسلم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتناقل». ثم ذكر لهم أنه مرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارس الغساني ملك الحيرة، والحارس الحميري ملك اليمن وإلى نجاشي الحبشة يدعوهم إلى الإسلام، ولم يكن لأصحابه أن يحاجوه فيها يرون أنه من أمر الله فقد بعثه الله للناس كافةً لا لقبيل دون قبيل. وكان كتابه إلى هرقل الروم:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا نتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»

وختمه بخاتمه وقد نقش عليه «محمد رسول الله».

ويرى توماس أرنولد أن كتاب الرسول إلى الأقباط والملوك إن عدّها البعض ضرباً من الحمق والغرور الداعيين إلى السخرية فقد برهنت الأيام أنها صدرت عن يقين ثابت وأنها دليل على «دعوى عموم الرسالة» التي تكررت في القرآن.

وبمثل ما واجه محمد قريشاً واجه الروم والفرس، وكيف يخشى الروم والغرس وقد أمره الله أن يقاتل في سبيل الدعوة من عرض لها بسوء أو نالها بكيد أو عدوان أو نية للعدوان فكانت غزوة مؤتة كما كانت تبوك على حدود الروم تأميناً للدعوة وقد أذن الله أن يجتاز سببه الجزيرة العربية إلى غيرها من بقاع العالم أوسع وكانت الشام منفذ الدعوة إليها.

وكانت موجة الفتوح الإسلامية الباهرة بعد ذلك لتأمين حرية الدعوة ثم كان النصر يدفع المسلمين إلى نصر آخر. وما كان ليقف في سبيلها شيء أو يعوقها عائق حتى وإن كان

خشية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من مغبة التوسع حتى ودّلو كان بينه وبين الفرس « سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم » ، فالنصر يعقبه النصر والموجة تدفعها الموجة ، وما كان عمر ليخشى في سبيل الله حرباً أو جهاداً وإنما هي خشية المتأني كما وإنه يؤمن تماماً بحرية الدعوة لدين الله بالحجة والموعظة الحسنة ، والله مظهر بعد ذلك دينه على الدين كله ولو كره الكافرون .

فالتفوح الإسلامية حتمية تاريخية ، لا تحكمها الرغبة في نشر العقيدة ولا حمل الناس عليها كرها وإنما أدى إليها واقع تاريخي وأدت إليها أسباب لم يكن من بينها حمل الناس كرهاً على اعتناق الإسلام ، ولعلها أقرب إلى دواعي السياسة منها إلى الدواعي الدينية ، فإننا نعرف جميعاً ما كان من أمر عرب العراق وما كان من أمر المثنى بن حارثة الشيباني حين جاء إلى أبي بكر داعياً لحرب فارس ، وما كان من رأى أبي بكر في دفع مسلمي شبه الجزيرة العربية إلى ما يشغلهم عن تراثهم ومناقضاتهم وما تركت حروب الردة من مرارة في نفوسهم ، كما نعرف ما كان لانتصار العرب في العراق ما حملهم على التفكير في غزو الشام وكان النصر بعد ذلك يدفع إلى فتح جديد ونصر آخر ، ولا يرى المسلمون في انتصارهم ما يحملهم على إكراه الناس على اعتناق الإسلام فلكل حريته الدينية ما أدى الجزية ، وهي كفاء حمايته وإعفائه من التجنيد ، وقد وضعها أبو عبيدة بن الجراح عن نصارى حمص وردّها إليهم حين عرف أنه لا قبل له برد الروم عنهم وقال : « إنما أخذناها جزاء منعكم والدفاع عنكم وقد عجزنا » .

وكان الناس يقبلون على الإسلام إقبالا فاق كل تصوّر واعتنق كثير من القبائل العربية المسيحية الإسلام وحاربوا الفرس والروم في صف المسلمين . ويقص توماس أرنولد من خير موقعة الجسر سنة ١٣ هجرية بين العرب والفرس أن الهزيمة رتد أو ركت أن تحل بالعرب إذا بزعم مسيحي من بني طيئ ينضم إلى المسلمين ، ويجعل منها شبيهاً بما كان من انحياز «سبوروس لاربتوس» إلى جانب «هوراتبوس» في موقعة جسر ملفيوس التي انتهت بانتصار قسطنطين وتحول العالم الروماني إلى المسيحية ، وفي موقعة البويب التي تلتها ، انحازت قبيلة بني النمر النصرانية إلى جيش المثنى وإلى قائدها توجه المثنى وقد استوى على فرسه وقال له : « إنك أمرؤ عربي فإذا حملت فاحمل معي » فارتدّ الفرس أمام هجومهم المروع وأضيف بذلك نصر كبير إلى سلسلة الانتصارات الإسلامية الرائعة - ويقول توماس أرنولد - « إنه في ذلك اليوم قام بأعظم الأعمال بسالة غلام من قبيلة نصرانية أخرى من قبائل البدو . وكان قد جاء مع أصحابه ، وهم جماعة من فرسان البدو بينما كان الجيش العربي يتهاى للقتال ، فألقوا بأنفسهم في المعركة إلى جانب قومهم ، فلما همى أوار المعركة

اندفع الغلام إلى قلب الفرس وقتل قائدهم ثم عاد إلى صفوف المسلمين على صهوة فرسه المظلمة وهو يصيح في زهو الانتصار : أنا الغلام التغلبي . أنا قتلت المرزبان » وقد ظَلَّت قبيلة تغلب على نصرانيتها وأمر الخليفة عمر ألا تكره على ترك دينها، وأن تقيم شعائرها الدينية كما تحب دون قيد بشرط ألا ترد من يرغب منها في اعتناق الإسلام وألا يعمدوا وليداً لأب مسلم ولما رأوا انتقاصاً من مكانتهم وإذلالاً لكبريائهم أن يؤدوا الجزية التمسوا من الخليفة أن يعاملهم معاملة المسلمين وأن يقبل منهم الزكاة بدلاً من الجزية مضاعفة .

وكان إقبال الفرس كما كان إقبال إيلات الروم على الإسلام إقبالاً منقطع النظير لم يكره منهم أحد على اعتناقه ، وما يروى عن إقبال المصريين على اعتناق الإسلام في عهد الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز . أن واليه على مصر استأذنه في فرض الجزية على من أسلم فأرسل إليه يقول : « فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جانياً » .

لم تكن الفتوح الإسلامية إذن لقهر الناس على اعتناق الإسلام ، فإذا قلنا إنها من دواعي السياسة ، سياسة الدولة التي تدين بعقيدة تدفع عنها وتحميها وتكفل لها الحرية فمعنى ذلك أنها ليست من دواعي نشر العقيدة وإن أدت إليها فالإسلام دين سلام ورسالة ولا يكره أحداً على اعتناقه بقوله تعالى :

(لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم^(٢٦)) .

ويروى في نزولها أن رجلاً من الأنصار اعتنق ولداه المسيحية قبل البعث ، ثم قدما إلى المدينة في أمر لها ، فلزمها أبوها وقال لها : لا أدعكما حتى تسلما فاخصمها إلى النبي ، وقال الرجل : أيدخل بعضى النار وأنا أنظر إليه ، فنزلت الآية ، وخلق الرجل سبيل ولديه .

إذا قسم الفقهاء العالم إلى دارين : دار حرب ودار سلم مفترزين أن المسلمين في حالة حرب دائمة مع غيرهم ، فهو افتراض لا يوائم جوهر الإسلام ولا يتسق مع الواقع في حروب المسلمين ، فالقتال وإن كتب على المسلمين فللضرورة التي يقتضيها دفع العدوان وتأمين حرية الدعوة أو دفع البغي من طائفة مؤمنة على طائفة أخرى مؤمنة ، وفيما عدا ذلك فقد فرض الإسلام المودة وحسن الجوار على المسلمين لغيرهم ، كما فرض عليهم فيها بينهم عهد الأخوة ، لا يخل به ولا ينقضه غير بغى طائفة منهم على طائفة أخرى مؤمنة أو قتالها ،

ولا يؤذن للمسلمين بقتال الباغية ما لم تقبل الصلح ، ولا يكون قتالها إلا لتفنى لأمر الله وهو الحق فإن فاءت فالصلح العادل هو ختام ما كان من نزاع وهو صلح يقره المسلمون وينزل على حكمه المتنازعون فلا قهر ولا عقوبة ولا انتقام فالمسلمون أمة واحدة وإن تعددت ديارهم وأصولهم وديارهم ملك لهم جميعاً ينتقل فيها المسلم ما طاب له الانتقال لا تقف دونه سدود أو قيود وأينما حلّ فله نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات ، له حق الرعاية والأمن والكفالة ، وعليه أن يقاتل في سبيلها وإن كان عابراً غير مقيم فلا ينصرف عنها حتى يؤدي فرض الجهاد راضياً غير كاره فإذا قيل إن ديار الإسلام دار سلم فيها فرض الإسلام على أهلها من عهد الأخوة وهو فرض كفالة ورعاية وسلام وحقوق وواجبات يتساوون فيها جميعاً وهى جميعاً قوام ما يمكن أن نسميه « السلام الإسلامى » الذى يضى ظلال الأمن والطمأنينة على كل ديار الإسلام ويستظل به كل من فيها مسلمين وغير مسلمين وكان أهدي سبيلاً من « السلام الرومانى » الذى قام على حدّ السيف واختلفت فيه حقوق المواطنين والمستوطنين وأقوم من كل مانراه من موثيق السلام فى العهد الحاضر .

العهود والمواثيق فى الإسلام :

واجه المسلمون منذ البداية ما يمكن أن نسميه الجماعات المخالفة ونعنى بها الجماعات التى لم تعتنق الإسلام وهى جماعات كانت إلى ذلك الوقت إما قبلية تمثلها قبائل العرب المنتشرة فى شبه الجزيرة العربية وإما دينية كيهود المدينة ونصارى نجران ، وكانت العهود والمواثيق التى أبرمت وقتذاك مع هذه الجماعات القبلية أو الدينية، فلما امتد الإسلام إلى خارج بلاد العرب واتصل المسلمون بالجماعات السياسية القائمة التى كانت العلاقات بينها وبين الدولة الإسلامية الناشئة هى التى يمكن أن نسميها علاقات دولية ، بمعنى أنها قامت بين دولتين لها كيانهما السياسى المتكافئ وإن احتدت نفس الأهداف والمراعى التى قامت عليها العهود والمواثيق بين الجماعة الإسلامية الأولى والجماعات القبلية الأخرى - ولا نعدّ فى هذا - على خلاف كثيرين - ما كان من بيعتى العقبة ، فالعقبة الأولى كانت بيعّة على الإسلام بايع فيها من جاء من يشرب محمداً على ألا يشرك أحدهم بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى بيهتان يفتره بين يديه ورجليه ولا يعصيه فى معروف فإن وفى فله الجنة وإن غشى من ذلك شيئاً فأمره إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر ، وكانت العقبة الثانية بيعّة على الإسلام كالأولى وبيعّة على التكافل والحماية وإقراراً لقاعدة أساسية فى الإسلام هى وقوف المسلمين صفاً واحداً لكل من يجترئ عليهم أو على دينهم فهى أول رباط فى وحدة المسلمين العامة ، كما لا نعدّ منها أيضاً ميثاق الرسول لأهل المدينة فقد كان

لتنظيم العلاقات بين أهل المدينة من المسلمين واليهود والمشركون على قواعد تكون لها صفة القانون والزمه ، وليست معاهدة حسن جوار وتحالف دفاعى كما بعدها البعض ولعل أول ما نعهده من قبيل العلاقات الدولية فى الإسلام ما كان من هجرة المسلمين إلى الحبشة فقد أدت بقريش إلى أن تبعث إلى النجاشى بمن يطلب رد المهاجرين إليهم واستمع النجاشى إلى حجة الفريقين فأقر إقامة المهاجرين فى بلده .

وأول علاقة بين المسلمين ومخالفهم يمكن أن تتسم بطابع العلاقة الدولية كما نعرفها فى الوقت الحاضر ما كان فى صلح الحديبية، فقد أذن محمد بين المسلمين بالحج ودعا إليه غير المسلمين من القبائل الأخرى فى الخروج إلى بيت الله آمنين غير مقاتلين وكان الحج إلى الكعبة فريضة بين العرب قبل الإسلام وقد دعا محمد غير المسلمين إلى الحج معه حتى لا تكون حجة لقريش عليه عند العرب إذا منعه وقتلوه فى الشهر الحرام وكانت نظرة سياسية أكثر منها دينية فقد حال الإسلام بين المشركون والحج إلى الكعبة بعد ذلك . أما والكعبة مهوى قلوب العرب جميعاً ولا يد عليها للمسلمين بعد فإن دعوة محمد قبائل العرب من غير المسلمين للحج معه ، هى دعوة السياسى الأريب وهى من قبيل التحالف أكثر منها إقراراً لحق يمكن أن يدعيه المشركون .

ولعلها كانت سبباً فى صد المشركون عن بيت الله بعد أن فتحت مكة أبوابها للنبي ودانت لدعوة الحق . وكان صدأ جازماً حاسماً لا يقال فيه إن محمداً قد سمح من قبل للمشركون بالحج معه فلم يبعج الحج عامه التالى حتى تتم كلمة الله وبعث بأبى بكر حاجاً بالمسلمين وأردفه بعلى بن أبى طالب ليقرأ على الناس سورة براءة وليعلن فيهم جميعاً « ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » .

ولما جاء النبى ونزل بالحديبية وقد أعلنت قریش ألا يدخلها عليهم قهراً، بدأت بينها وبينه مراسلات ورسائل ثم كانت مفاوضات أعلن فيها محمد أنه لا يبقى غير الحج مسالماً وأصرت قریش ألا يدخلها عليهم عامه ذاك حتى لا تتضع مكانتهم بين العرب وأعقبها ما يعرف بصلح الحديبية على ما جاء فى صدره : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله » ونص على المهادنة عشر سنوات فى رأى أكثر كتاب السير وسنتين فى قول الواقدى « وأن من أتى محمداً من قریش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قریشاً من رجال محمد لم يردوه عليه ، وأنه من أحب من العرب مخالفة محمد فلا جناح عليه، ومن أحب مخالفة قریش فلا جناح عليه ، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا ، على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قربها ولا سلاح غيرها » .

ولم يكن صلح الحديبية أول صلح في الإسلام فقد سبقه الصلح مع يهود بني النضير وخير وفذك أما ما كان مع يهود بني قريظة فهو أقرب إلى التحكيم حين ارتضوا حكم سعد بن معاذ واختاروه ، وكان صلح الحديبية أقرب إلى الهدنة الموقوتة منه إلى الصلح الدائم ، وكان بين طرفين متكافئين لم يظهر فيهما طرف على الآخر في حرب .

وأول عهد في الإسلام عهد النبي لنصارى نجران ، ويعدّه سيد أمير على مثالا لجوهر الروح السياسية في الإسلام ، وقد كان للنبي عهود قبله مع عدد من القبائل العربية إلا أن عهده لنصارى نجران كان تشريعاً لمعاملة رعايا الدولة من غير المسلمين اهتداه الحكام من بعد ، ونصه كما يلي :

« لنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد رسول الله على ما تحت أيديهم من كثير أو قليل ، لا يغير أسقف من أسقفية ولا راهب من رهبانية ولا كاهن من كهانته وليس عليه دين^(٦٣) ولادم جاهلية ، ولا يخسرون ولا يعسرون ، ولا يظأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذى قبل^(٦٤) فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر ، وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي الأُمى رسول الله أبداً ، حتى يأتي الله بأمره » .

وقد أراد الرشيد في خلافته أن ينقض هذا العهد فمنعه منه قاضى القضاة محمد بن الحسن الشيبانى .

وأول سفارة في الإسلام وفادة رسل النبي على الملوك والأقبال بدعوة الإسلام فمنهم من ردّ رداً حسناً كهرقل ومن أكرم وفادة الرسل كالمقوقس ومن أساء إليهم ككسرى فارس . ومن هذه العهود والمواثيق وأحكام الصلح والمهادنات والتحكيم يتكوّن التشريع الدولى في الإسلام ، وهو ما يقابل القانون الدولى في العصر الحديث . ولم يكن للعلاقات الدولية أحكام مرعية وقواعد ثابتة من قبل إلا ما جرى به العرف وكان يقوم على قاعدتين : قاعدة القهر في العلاقة بين الدول أو الاسترقاق أو ما يشبهه من ضروب الاستعمار في العلاقة بين الدولة ورعايا البلدان التى تخضع لها ، ولم تكن تختلف عن القنية أو الاسترقاق بأى حال من الأحوال . وكان العالم قلة من السادة تحكم وتستبد وكثرة من الرعايا المستعبدين والرقيق وأقنان الأرض، حتى جاء الإسلام بتشريع لكل تلك العلاقات .

وتستمد العلاقات الدولية طبيعتها من روح الإسلام ، وهى علاقة كما قلنا بين المسلمين والمخالفين . إذ أن المسلمين أمة واحدة تحكمها شريعة واحدة وسلطان واحد فإذا تعددت

(٦٣) ليس عليه دين أى لا يعامل معاملة الضعيف . (٦٤) المراد ما يكون في المستقبل .

السلطة بتعدد الشعوب فإن العلاقة التي تحكم الشعوب الإسلامية أو حكوماتها هي العلاقة التي تقوم على الإخاء الإسلامى والعهد بينها هو عهد الأخوة ولا عهد غيره .

والمخالفون إما معاهدون وإما لا عهد لهم والمعاهدون إما ذميون وإما مستأمنون فالذمي من يقيم فى أرض الدولة الإسلامية ويتمتع برعويته وله ما للمسلمين من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات مع كفالة حريته الدينية والشخصية فيما يتصل بأحكام دينه كأحكام الأسرة وما يبيحه دينه من مطعم ومشرب فأباح الحنفية لهم أكل الخنزير وشرب الخمر وخالفهم جمهرة الفقهاء معتبرين أن الإباحة ليس لها سند فى دينهم . والضريبة التي تقتضيها الدولة منه هي الجزية ويعفى مقابلها من واجب الدفاع وفريضة الزكاة وإن كان حقّه فى الزكاة كحق المسلم لا ينقضه أنه ذمى ، وقد رد أبو عبيدة الجزية لأهل حمص فى وقت ظن أنه لا قبل له بدفع الروم عنهم ، وقال لهم : « إنما أخذناها جزاء منعتكم والدفاع عنكم وقد عجزنا » .

وقد أجرى عمر الصدقة على يهودى كفيف البصر وأمر له برزق مستمر من بيت مال المسلمين وقال لخازن بيت المال : « أنظر إلى هذا وضربائه ، فوالله ما أنصفنا إن أكلنا شبيبته ثم نأخذله عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب » ثم وضع الجزية عنه وعن ضربائه . وما أوصى به عند ما حضرته الوفاة : « أوصى الخليفة من بعدى بدمه رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم فوق طاقتهم » .

وللذمى ذمة رسول الله وعهده ، وفى الحديث « من آذى ذمياً فليس منا » . والعهد لهم ولأبنائهم من بعدهم أبدى دائم لا ينقض بقيمه ولى الأمر ويرعاه ما كانوا فى ديار المسلمين مقيمين غير نازحين راضين بالحياة معهم غير كارهين ، ومن لا يرضى فله أن يرحل ، أو يقيم مستأمناً للمدة التي يرغب حتى يرحل .

ومن الذميين من يقيمون فى أرض لهم وحدهم ودارهم دار عهد أو دار موادة عقد لهم ابتداء عندما يخبرهم المسلمون بين الإسلام أو المسألة فيختارون المسألة ويصالحون المسلمين على شروط يتفقون عليها ويكون على المسلمين حمايتهم والدفاع عنهم ويكون على هؤلاء الذميين أن يؤدوا الجزية للمسلمين مقابل ذلك كما كان عهد النبی لنصارى نجران وعهد أبى عبيدة لأهل حمص وعهد عبد الله بن سعد بن أبى السرح مع أهل النوبة وعهد معاوية مع أهل أرمينية . ويرى الشافعى أن الموادة أو العهد لا يكون إلا مع الموادعين من الحكام فإن كانوا من غير الموادعين فليس لهم عهد ولا موادة ، وهو ما عبر عنه الشيبانى بالمنعة

والسلطان لأهل الجماعة التي يعقد معها عقد المودعة ، فإن لم تكن لهم المنعة والسلطان بخضوعهم لدولة أخرى فليس لإحداها عهد إلا أن يكون مع كليهما .
ومن أشهر عهود الذمة بعد عهد النبي لنصارى نجران ، عهد الخليفة عمر لأهل إيلياء ونصه كما أورده الطبري :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم . ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله ، وإنه لا يؤخذ منهم حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية » .

وختم عمر الميثاق بتوقيعه وشهد عليه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن ابن عوف ومعاوية بن أبي سفيان .

واغتبط صفر نيقوس أسقف بيت المقدس بعهد عمر واغتبط به أهل بيت المقدس جميعا « وكيف لا يغتبطون - كما يقول هيكل - وقد أقرهم المسلمون وأمنوهم على أموالهم وأنفسهم وعقائدهم . لا يضار أحد منهم بسبب دينه ، ولا يكره على شئ من أمره . وكيف لا يغتبطون وقد أباح هذا العهد لمن شاء من أهل المدينة أن يرحل عنها مع الروم . وأباح لمن شاء من الروم ومن الأجانب المقيمين بالمدينة أن يظلوا بها آمنين . ثم لم يفرض عليهم غير الجزية لقاء منعهم وكفالة أمنهم . أين هذا مما كان يريد هرقل أن يكره أهل المدينة عليه من ترك مذهبهم إلى مذهب الدولة الرسمي فمن أبي جدع أنفه وصلمت أذناه وهدم بيته » .

ولم يشأ عمر أن يصلى فى كنيسة القيامة حين جاء موعد الصلاة وهو يطوف بها ، وطلب إليه البطريق أن يصلى بها فهى من مساجد الله ، وأبى عمر الصلاة فيها حتى لا تكون سنة يحذنها المسلمون فإذا احتذوها أخرجوا النصارى من كنيساتهم وخالفوا عهد الأمان ، ولم

يشأ أن يصلى بكنيسة قسطنطين المجاورة للسبب نفسه وصلى قريباً من الصخرة المقدسة حيث أقيم المسجد الأقصى من بعد .

وكان عهد النبي لنصارى نجران وعهد عمر لأهل إيلياء مثلاً لعهود أهل الذمة .
وأما المستأمن ويسمى بالحربي في رأى من يعدّون كل من لا عهد له ضمن دار الحرب فهو من دخل ديار الإسلام عابراً أو مرتحلاً أو مقيماً لأجل وليس له حق الإقامة الدائمة فإذا أرادها وأقام فيها إقامة دائمة أصبح من أهل الذمة ولم يعد مستأمناً .

وللمستأمن حق الحماية والرعاية وإن كانت داره في حرب مع المسلمين ناشية ما دام لا ينكث بعهد الأمان ولا يفتات عليه بغدر أو خيانة تضر بالدولة ، فالحرب في الإسلام هي حرب المقاتلين من الجماعات والدول لا يصلى سعيها الأمان ما دام بعيداً عن القتال غير مشارك فيه ، بفعل أو برأى ، وهو آمن على ماله وملكه وما كسبت يده حلالاً من غير ربا في دار الإسلام ويبقى له ماله وإن عاد إلى بلده التي هي في حرب أو في حالة حرب مع المسلمين ولا تزول عنه ملكيته حتى وإن حمل السلاح ضد المسلمين :

ويسهب الفقهاء والشرائح في حقوق المستأمن ويقولون ببقاء الأمان في ماله وفي نفسه إذا دعت دواعي التجارة أو النزهة أو قضاء حاجة لنفسه ولغيره إذا عاد إلى دار الحرب ثم قفل منها راجعاً إلى ديار الإسلام لأنه لم يخرج عن نية الإقامة فيها فهو كالذمي في هذا ، فإذا استوطن دار الحرب بطل الأمان في نفسه وبقي في ماله لاختصاص المبتطل بنفسه فيختص البطلان به ، ويقولون إنه إذا مات المستأمن في دار الإسلام وجب أن يرسل ماله لورثته وإن كانت دارهم في حرب مع المسلمين ، ويزيدون على ذلك إنه لو قتل في حرب مع المسلمين فإن ذلك لا يحرم ورثته حق الميراث في ماله ، وعلى ولي الأمر أن يرسلها إليهم كاملة غير منقوصة ، وبخالفهم الشافعي في ذلك لأنه يرى الأمان له وليس لورثته الذين لم يعقدوا

ولا يصادر مال المستأمن إلا في حالة واحدة هي أن يؤسر في حرب ويسترق إذ يصبح غير أهل للتملك ويؤول ما يملك إلى بيت المال ويعتق عبده .

وأما من لا عهد له من المخالفين ويسمى « الحربي » على اعتبار أن العالم دار حرب أو دار سلم وأن دار السلم هي ديار الإسلام وإن كنا نعتقد أن التسمية جرت بذلك لأن ديار الإسلام وديار العهد مما لا يجوز فيها حرب ، فديار الإسلام دار سلم دائم لا يختصم فيها المسلمون بعضهم البعض ، ولا تبغى طائفة منهم على أخرى فإصلاح ذات البين بينها فرض على المسلمين وإلا قاتلوا الباغية حتى تنفى إلى حكم الإسلام ، وأما ديار العهد فهي دار

سلم بما لهم في ذمة المسلمين من عهد واجب الوفاء ما التزموا من جانبهم بالوفاء وأما دار الحرب فمما يجوز للمسلمين حربها بشرط وقوع العدوان أو ثبوت نية العدوان .

فليست للحرب مع المخالفين من لاعهد لهم صفة الدوام أو الاستمرار وإنما هي موقوتة بظروفها مما تحكمه علاقاتهم الفعلية مع المسلمين من رعاياهم ، أو علاقتهم مع الدولة الإسلامية . فإذا اضطرهم المسلمون من رعاياهم وحالوا بينهم وبين حريتهم الدينية كان جهادهم في ذلك واجباً على المسلمين . وإذا خيف عدوانهم على ديار الإسلام أو كان هناك ما يهددها منهم ، كان على المسلمين أن يحذروهم ويعدوا للعداة للملاقاتهم ، والمبادرة خير من الانتظار لما غزى قوم في عقر ديارهم إلا ذلوا في قول على بن أبي طالب ، والمبادرة مبدأ أصيل من مبادئ الحرب .

وفي الإسلام يتمثل حق الفرد وحق الدولة في منح الأمان للفرد أن يجبر ويؤمن ويعاهد فرداً أو مجموعة من الناس وأمانه وعهده مصونان بالحديث المأثور : « ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم » وكان ذلك سنة في العرب وكم خاضوا من الحروب بسببها ومازال سنة حميدة فيهم أكدها الإسلام ، وقد أجاز أبان بن سعيد عثمان بن عفان الزمن الذي يفرغ فيه من مفاوضة قريش قبيل صلح الحديبية وكانت بيعة العقبة الثانية من هذا القبيل فقد قبل محمد جوار أهل يثرب على أن يمنعه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، وأجارت زينب ابنة النسي أبا العاصي بن الربيع وكان من أسرى بدر واقتدته زينب وكانت زوجاً له في الجاهلية ومازال مسكاً لها بمكة وكان في بعض ما اقتدته به قلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاصي حين بنى بها فلما رآها النسي رق لها رقّة شديدة ، فقال لأصحابه : إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوها عليها ما لها فافعلوا ثم اتفق مع أبي العاصي على أن يفارق زينب ما دام الإسلام قد فرق بينها وبعث بمن جاء بها إلى المدينة فلما خرج في مال لقريش بعد ذلك وقع في إसार سرية للمسلمين فلما كان الليل أنسل إلى بيت زينب واستجارها فأجارته ، فلما رجع إلى مكة ودفع لكل ذي مال ماله نادى فقال : « يامعشر قريش . هلي بقی لأحد منكم عندي مال لم يأخذه » قالوا : لا ، جزاك الله خيراً فقد وجدناك وفيّاً كريماً . قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله والله ما منعتني من الإسلام عنده إلا مخافة أن تظنوا أني إنما أردت أن أكل أموالكم فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت ثم هاجر إلى المدينة ورد إليه النسي زينب . وقبل عمر أمان العهد فقد كتب إليه أبو عبيدة أن عبداً أمن أهل بلد بالعراق وسأله الرأي فكتب إليه عمر : « إن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا » فوفوا لهم وانصرفوا عنهم وأجاز أمان العبد، كما

أقر الإسلام أمان المرأة ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « قد أجرنا من أجزت يا أم هانئ » وإن رأى بعض الفقهاء ألا يكون للعبد أو المرأة عهد إلا بإذن الإمام أما عهد المسلم الحر فواجب الوفاء .

وكفل الإسلام أمان المستجير في قوله تعالى :

(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)^(٦٥) .
وما يروى في ذلك ما كان من واصل بن عطاء زعيم المعتزلة وقد وقع جماعة من صحبه في أيدي الخوارج وهم على ما نعرف من شدة في الدين فخشى واصل أن يمسه بسوء فقال لأصحابه : دعوني وإياهم وكانوا قد أشرفوا على العطب فقالوا شأنك . فخرج إليهم فقالوا : ما أنت وأصحابك قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده ، فقالوا : قد أجرناكم فجعلوا يعلمونهم أحكامهم ثم قالوا : امضوا مصاحبين فإنكم إخواننا . قال واصل : ليس ذلك لكم فإن الله تبارك وتعالى يقول : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) فأبلغونا مأمننا فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا : ذلك لكم وساروا بأجمعهم حتى أبلغوهم المأمن .

كما كفل أمان المحارب ، وعده الخليفة عمر واقعاً ولو بالإشارة أو بالكلمة فإذا قيل للمحارب لا تخف ، كان ذلك أماناً له ، وإذا أشير عليه ولو بالأصبع ما يفيد ذلك كان ذلك أماناً أيضاً وقد سمع أن مسلماً قال لمحارب فارسي لا تخف ثم قتله فكتب إلى أمير الجيش يقول : « بلغني أن رجلاً منكم يطلبون العليج حتى إذا اشتد في الجبل وامتنع فيقول له لا تخف . فإذا أدركه قتله . وإني والذي نفسي بيده لا يبلغني أن أحداً فعل ذلك إلا قطعت عنقه » وما ينسب إليه أنه قال : « لو أن أحداً أشار إلى السماء بأصابعه لشرك ثم نزل إليه على ذلك فقتله لقتلته به » .

ويكون للمستأمن على ذلك أمان الذمي فلا يؤسر ولا يسترق .

وللموآثيق والعهد حرمتها في الإسلام في قوله تعالى :

(وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أرى من أمة إنما ييلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون . ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا

السوء بما صدقتم عن سبيل الله ولكم عذابٌ عظيم . ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون (٢٦١) .

وقد جاء إلى النبي - وكان صلح الحديبية قد عقد لتوّه - أبو جندل بن سهيل بن عمرو يريد اللحاق بالمسلمين والسير معهم . فلما رأى سهيل ولده ، ضرب وجهه وأخذ يحجره يبغى رده إلى صف قريش وأبو جندل يصيح : « يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني » .

ولم ير النبي إلّا أن يصبر أبو جندل وقال : « يا أبا جندل ، فاصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله وإنا لا نغدر بهم » وكان النبي قد قبل أن يردّ على قريش من يفد عليه منهم وألا ترد قريش من يفد من المسلمين عليهم ولم يلك لأبي جندل بعد إبرام العهد إلّا أن يفى به ويردّ أبا جندل إلى قومه موصياً إياه بالصبر .

ولما ذكر بعض المسلمين نية المشركين على الغدر قال : « وفوا لهم ونستعين بالله عليهم » وكان عليه الصلاة والسلام يحث المسلمين على الوفاء بعهدهم ويقول : « ألا أخبركم بخياركم؟ خياركم الموفون بعهدهم » ويقول : « إنا أحق بمن وفى بعهده » ويرى أكبر الغدر غدر الأمراء لأن غدرهم ينسحب على أتباعهم فيحقيق بهم من الضر ما يحيق به ، فإذا كانت الدولة فإن غدر أربابها يجرّ عليها وعلى أهلها من النزاع والشحناء مالا تضمن مغبته ويقول : « لا غادر أعظم غدرأ من أمير عامة » .

والوفاء واجب على المسلمين وإن بدت نية الغدر من الآخرين في قوله تعالى : (وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) (٢٦٢) .

ويرى عبد الرحمن عزام في الرسالة الخالدة أن : حرمة العهود فوق حرمة الدين فقد جعلت الشريعة حق الميثاق فوق حق الدين نفسه فللمشرك من قوم بينهم وبين المسلمين عهد حق الدية تدفع إلى أهله .. وقد حرمت كذلك الشريعة نصرة المسلم للمسلم على من بيده ميثاق وهو غير مسلم ويستشهد على ذلك بقوله تعالى :

(وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) (٢٦٣) .

فإذا أجبر المسلمون على نقض العهد لنين الخيانة فعليهم أن يندروا بذلك ويعلموه وليس لهم أن يفجأوا القوم بإجراء يترتب على نقض العهد ما لم يعلم القوم بنقضه وأن المسلمين في حل منه في قوله تعالى :

(وإِذَا تخَافُونَ من قوم خِيَانَةً فَاذْكُرُوا لِلّٰهِمْ عَلَى سِوَاءِ إِنْ اللّٰهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)^(٦٩) .
ولا ينقض عهد المسلمين ما لم يبدأ الآخرون بنقضه ، أو يكون من هؤلاء الآخرين ما
ينقضه كمظاهرتهم للعدو على المسلمين في قوله تعالى :
(إِنْ الذِّينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا
إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ)^(٧٠) .

وليس لهم أن ينقضوا في غير ذلك عهدا عاهدوا الله عليه بقوله تعالى :
(وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا)^(٧١) .
وقد جرى المسلمون بذلك حتى مع من لا عهد لهم ، فالوفاء بالعهد من مقررات
الإسلام الأصيلة ، يسرى على الأفراد كما يسرى على الجماعات فكان ما أوصى به عثمان
ولاته في كتابه إليهم ونصه :

« أَمَا بَعْدَ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ ، فَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْحَقَّ ، خَذُوا الْحَقَّ وَاعْطُوا الْحَقَّ ،
الْأَمَانَةُ الْأَمَانَةُ ، قَوْمُوا عَلَيْهَا لَا تَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ يَسْلُبُهَا فَتَكُونُوا شُرَكَاءَ مَنْ بَعْدَكُمْ . الْوَفَاءُ
الْوَفَاءُ لَا تَنْظُمُوا الْيَتِيمَ وَلَا الْمَعَاهِدَ فَإِنَّ اللَّهَ خَصِيمٌ مِنْ ظَلَمِهِمْ » .

وفي كتاب علي بن أبي طالب إلى الأشتر النخعي :
« وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عَقْدَةً أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً فَحُطَّ عَهْدُكَ بِالْوَفَاءِ ، وَارْعَ
ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ جَنَّةً دُونَ مَا أُعْطِيَتْ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ شَيْءٌ النَّاسُ
أَشَدَّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَانِهِمْ وَتَشْتَتِ أَهْوَانِهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ .. فَلَا تَقْدِرُونَ بِذِمَّتِكَ
وَلَا تَحْسِنُ بَعْدَكَ وَلَا تَخْتَلِنَ عَدُوُّكَ فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ .. فَلَا إِدْغَالَ
وَلَا مِدَالَةَ وَلَا خِدَاعَ فِيهِ . وَلَا تَعْقِدْ عَقْدًا تَجُوزُ فِيهِ الْعُلَلُ ، وَلَا تَعُولُنَ عَلَى لَحْنِ الْقَوْلِ بَعْدَ
التَّأَكُّدِ وَالتَّوَثُّقِ ، وَلَا يَدْعُونَكَ ضَيْقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ،
فَإِنْ صَدَّكَ مِنْهُ ضَيْقُ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَتَقْبَلُ انْفِرَاجَهُ وَتَقْبَلُ عَاقِبَتَهُ خَيْرٌ مِنْ عَذْرِ تَخَافُ
تَبِعْتَهُ »

والوفاء خلة من خلال الإسلام لا يقتصر على عهود السياسة ومواثيقها وإنما يمتد إلى كل
ما عداها مما يستوجب الوفاء ويقتضيه من عهود ، والعهد لله والذمة للرسول فيقال عهد
الله وذمة رسول الله ؛ لذلك سُمي المخالفون من أهل الكتاب بالذميين أى لهم ذمة رسول
الله .

و غاية الوفاء هو الوفاء بعهد الله إطلاقاً في قوله تعالى :

(ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً)^(٧٢) .

(وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإني أوفى فارهبون)^(٧٣) .

(الذين يوفون بعهد الله ولا ينتقضون الميثاق)^(٧٤) .

(يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود)^(٧٥) .

(وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً)^(٧٦) .

(وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم)^(٧٧) .

(يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً)^(٧٨) .

(بلى من أوفى بعهده وأتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم

ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة

ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم)^(٧٩) .

وقد جعل الله الوفاء من البر وقرنه بالصالح من الأعمال التي تكون في مجموعها جوهر

العقيدة الإسلامية في قوله تعالى :

(ليس البر أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم

الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن

السييل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا

والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)^(٨٠) .

وهى فى الوقت نفسه جوهر الخلق الإسلامى والله بعد ذلك خير الأوفياء فى قوله تعالى :

(ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز

العظيم)^(٨١) .

وليست العهود والمواثيق فى الإسلام إلاّ للخير فلا عهد على ظلم ولا ميثاق على بغى أو

عدوان بقوله تعالى :

(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)^(٨٢) وأقر الإسلام ما كان

من ذلك فى الجاهلية فمن محمد العرب قبل الإسلام الوفاء بالعهد وتأمين المستجير فكان

(٧٨) الإنسان : ٧ .

(٧٩) آل عمران : ٧٦ - ٧٧ .

(٨٠) البقرة : ١٧٧ .

(٨١) التوبة : ١١١ .

(٨٢) المائدة : ٢ .

(٧٢) الفتح : ٢٠ .

(٧٣) البقرة : ٤٠ .

(٧٤) الرعد : ٢٠ .

(٧٥) المائدة : ١ .

(٧٦) الإسراء : ٣٤ .

(٧٧) النحل : ٩١ .

حلف الفضول ما قال فيه محمد : « لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت » : وهو حلف عقده قريش في الجاهلية لنصرة المظلوم وسببه أن يمينا جاء مكة ببضاعة ابتاعها منه رجل من بني سهم يقال إنه العاصي بن وائل امتنع بسلطانه أن يفى اليمنى ثمن بضاعته أو يردها عليه فقام اليمنى إلى الكعبة صارخاً .

يالقصى لمظلوم بضاعته يبطن مكة نائى الدار والنفر

فقام إليه من قريش من ردّ إليه ماله واجتمعت بطونها في دار عبد الله بن جدعان وتحالفوا على ردّ المظالم وإنصاف المظلوم من ظالمه وكان النبی من حضروا الاجتماع وبسنته وقتذاك خمس وعشرون سنة فكان إذا ذكر حلف الفضول يقول : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول أما لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت وما أحب أن لي به حمر النعم وأنى نقضته وما يزيده الإسلام إلا شدة » .

ولما قضى صلح الحديبية بحرية الاختيار لمن يدخل في حلف المسلمين أو حلف قريش ، دخلت خزاعة وما زالت على الشرك في حلف المسلمين وكانت خزاعة حليفة في الجاهلية لعبد المطلب جدّ النبي فأرادت أن يكون عهدها معه مجدداً لما كان مع آبائه فأقرّ النبي العهد على ما كان عليه وزاد عليه بشرطين أولهما ألاّ يعين خزاعة ظالمين وثانيهما أن يعينها إذا وقع عليهم ظلم .

وليس في نقض العهود في الإسلام ما يبرر ظلم من نقض أو ينفي العدالة عنه وهي من مقررات الإسلام بقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (٨٣) .

فالفاء كما نعتقد هو شعيرة الإسلام الكبرى في كل ما يربط البشر من معاملات وعلاقات، وفي كل ما يربط العبد بخالقه ، وبه يتميز الإسلام على غيره من عهود القانون الدولي ومواثيق الأمم وشرائع المجتمع .